
المكتبة السنغالية
في خدمة التراث الإسلامي السنغالي
مجهول الأمّة السنغالية
للمؤلف
الشيخ أحمد التجاني سي
الطبعة الأولى: 1961 م
الطبعة الثانية: 2010 م
أخوكم علي صارْ
الهاتف: 73 66 534 77
76 481 60 37

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن لكل عظيم لفلسفة، وفلسفة هذا العظيم هي قول الله تعالى : ﴿ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (١٥) الشورى

وقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ...﴾ (١٥٣) الأنعام.

وكان هذا الإمام زعيما للطائفة التجانية في السنغال.. بل لقد كان قبل كل شيء زعيما للإسلام، وكفي دليلا على ذالك ما ذكره في هذا الكتاب السيد احمد التجاني سي بن الخليفة الشيخ السيد أبي بكر سي ابن هذا الإمام الكبير ...وقد تبين لنا إذًا أن هذا الأستاذ المؤلف هو الابن الثاني من سلالة هذا الإمام العظيم؛ ولا خفاء أنه قد ورث والده وجده العظيمين المذكورين العلم والمعرفة كما هو واضح في شهادة هذا الكتاب ، ولاغرو إذ هو حامل رسالة هذين الأبويين ؛ هذه الرسالة التي مازال يؤديها أمام الشعب السنغالي المسلم ؛ هذه الرسالة التي بقيامه بها نصب عينيه أصبح مسيطرا على هذه القلوب المتعطشة إلى الخير والسلام...

ولاغرو إذ هو قد صار في طليعة الأدباء المرموقين بهم والمشارين إليهم بالبنان ومن حملة الأقلام المناضلين في سبيل الأمن والسلام العالمي . وتقر ذلك مؤلفاته من الكتب والدواوين...

وعلاوة على هذا فسيادة المؤلف زعيم مرموق في ميادين الكفاح السياسي والوطني، ومن جانب هذا فله عدة مشروعات دينية وثقافية واجتماعية نذكر منها مشروع

بناء "تفاقون" بنية أداء الفرائض والعبادات ونشر العلوم الثقافات . ومشـــروع تنظـــيم الاتحاد للجمعيات الثقافية الإسلامية، وتنظيم المدارس التابعة لها. وغير هذه من المجهودات التي يبذلها في سبيل الكفاح المستمر لصالح الشعب السنغالي العزيز ؛ وهو لم يزل ينتقل في مثل هذه المراحل مرحلة بعد مرحلة إلى أن أصبح حاليا يمثل هذه الشعب السنغالي المسلم اليوم في الجمهورية العربية المتحدة.

سدد الله خطواته أخذ بيده لصالح الدين والإنسانية ، وبارك في جهـــاده في جميـــع اتجاهاته نحو العدل والإحسان.

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ .. ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ، وكل من تبعه من أئمة الدين إلى يوم الجزاء...

أما بعد

إنه من خدمة العسيرة وضع كلمات يفهم منها الناس حياة رجل عظيم !!
وأعسر من ذالك مراعاة ما صح، وترك ما لم يكن إلاّ أحاديث المتعصبين الذين لا يهمهم إلا تأييد من يتعصبون له بخرافات تائهة يستعينون على اختلاقها بشيء من الأكاذيب وشيء من الجنونات كما هي العادة في هذا القطر الأسود...

ومن أجل هذه الآفة يمتنع أو يعسر على كل من يبحث عن الحق والحقيقة أن يجد سبيلا إلى معرفة حياة زعمائنا حيث أن تابعيهم لا ينقلون إلينا إلا هذه الخرافات التي تمجها آذان العقلاء ، وتكرهها قلوب ذوي الألباب إلى حد بعيد...

وذالك لأنهم لا يعرفون كيف يحبون الأئمة ، وكيف يأتمون بهم وكيف يتبعون ما في حياتهم من الحقائق والآثار...

كانت همتهم تتوقف على مجالسة الزعماء والضحك معهم ومرافقتهم إلى بعض المحلات ومطالبتهم بالإجازات والرسائل التي يجولون بها في البلاد للحصول على شيء من النفقة وعلى عدد من الدراهم..

إن الصحبة في هذا القطر صحبة عادة لا صحبة علم ؛ والمرافقة فيه مرافقة هوى لا مرافقة صدق ، ولذالك يعجز بعض الأصحاب وبعض الرفقاء عن الإتيان بما صح من الأخبار التي تتعلق بحياة الأئمة الذين هم للبلاد فخل ولأهلها عنوان...

من الخطأ إذا لم يكن من الخطر تغافل الكتاب المعاصرين عن تزويد الشبان بمعرفة سلفهم الصالح الذي أقام لهم الدين ، وترك لهم هذا التراث الكريم الذي فيه مجدهم وفيه نجاحهم وفيه سعادتهم الخالدة ...

ومن أجل ذالك طلبت من الكبراء المجدين المتحققين أن يعينوني على تسويد هذه الصحيفة لذكر بعض مايوافق الحق والحقيقة من حياة الإمام مالك ابن عثمان الذي يؤثر ذكره في قلوب المسلمين تأثيرا عميقا ...وكان أول من أجابني إلى ذلك أستاذنا المحترم المحبوب السيد علي بن إبراهيم ، جزاه الله عني وعن الأمة المسلمة السوداء وعن نفسه خيرا ...

وممن أعانني على ذلك أيضا السيد الأستاذ محمد المختار "تبل" الذي أفادني بحياة شيخه إفادة جمة واعتمدت بعد ذلك على كلمة أرسلها السيد العلامة الحاج عبد الله "أنياس" إلى الإمام نفسه يذكر فيها مقتل والده الشهير عثمان بن معاذ وكيفية إغارة الجبابرة على ديارهم ، كما اعتمدت أيضا على رسالة أخينا الفاضل السيد "محمد تابان" إلا أن أكثر ما أتيت به في هذه الورقات قد نقلته عن خليفته الكبير أبقاه الله وأيده آمين...

هذا مع أني أطلب من القراء العفو عن عدم الإطالة في البحث، وعدم الإتيان بحياته كلها ، وذالك لأنه ليس من شأني عند ذكر الأئمة أن آتي بكل شيء ، بل لا آتي إلا بما فيه منفعة للشباب ، وما فيه سرعة الفهم لهم خوفًا من إضاعة أوقاتهم الثمينة ، وراحاتهم النفيسة في قراءة ما لا يعرفون منه إلا شيئاً قليلا...

أيها الشبان: لا تنظروا في هذه الورقات إلا نظرة العفو والصفح واعلموا أني لست بكاتب ولا شاعر ولكنني لا أحب أن يضيع بين جنبي ما التقطه .

موت الإمام

الإمام يجيب إلى دعوة الله ، وترتفع أصوات المسلمين بالاسترجاع...

إنا لله وإنا إليه راجعون !! ماذا ؟

إن الإمام الذي كان يحمينا عن إتباع الهوى، ويذودنا عن سبيل الباطل ، لقد مات.

إن الإمام الذي كان يزودنا من العلم الحكمة بما ينفى جهلها ويجعلنا في الذين يتمتعون بالخيرات ، لقد مات..

إن الإمام الذي كان يدربنا على الوقوف عند حدود الله ، وعلى مجاهدة النفس في كل حين من الأحيان ، لقد مات ..

إن الإمام الذي كان يهذب أخلاقنا ويطهر ضمائرنا في كل مجلس من مجالسته العلمية، قد مات ..

إن الإمام الذي كان يحقق لنا ما ذكره رب العزة في كتابه العزيز من أنه سيظهر هذا الدين المتين على الدين كله ولوكره المشركون ، لقد ماتْ ..

إن المسلمين خاصة وعامة يجتمعون لمجابهة هذه الكراثة التي ذهبت بقلوبهم وهضت بأكبادهم، ثم تركتهم كأنهم على حد قول الشاعر:

ومجاشع قصب خلت أجوافها لو ينفخون من الخثورة طاروا

وإنهم خاصة وعامة يغادرون أهاليهم وأموالهم لأداء هذا الفرض الأخير الذي هو مآنستهم الأخيرة بهذه الشخصية الكاملة التي كانوا يؤانسون بها من قبل بالنفس والذات، والتي لا يؤانسون بها اليوم إلا قدر نظرة خفيفة يحققون بها حبهم الخالص في هذا الرجل العظيم !! وإنهم خاصة وعامة يجدون في البكاء ويرفعون أصواتهم بالاسترجاع ؛كأنما فقدوا مع هذا الإمام حياتهم ودينهم وفقدوا معه سلامهم وخيرهم وكل شيء !!..

إن المسلمين خاصة وعامة يشكون ويترددون في هذه المصيبة العظمى.. يثبتون تارة وينكرون أخرى. كأنما هم يتوهمون أن هذه الروح الكريمة الطاهرة لا تذهب وحدها إلى ربها بل يليق بها إذا ذهب أن تذهب بالأرواح كلها حتى لا تبقى في الدنيا نفس بهيمة ولا روح إنسان.فهؤلاء ضعفة المسلمين يكون على أبيهم الرحيم الذي كان من حين يسد خلتهم ويغنيهم في سغبهم ومتربتهم ؛ ومن حين آخر يعلمهم ويربيهم ويهديهم إلى سبيل الفوز والنجاح.

وهؤلاء العلماء والسادات يبكون هذا الإمام الذي لم يزل ينقذهم من كل زلة، ويعطيهم من النصائح ما لا يعطيه لقمان الحكيم لابنه ، وهؤلاء كبراء المسلمين يتأسفون على هذه الرزية العظمى التي ذهبت بمن لم يزل لهم سمعا وبصيرة، ومن لم يزل يضيء لهم كل منهج من مناهج الخير، ويروض لهم من النفوس ما لم تكن تقبل إلا التكبر والطغيان.. ولماذا لا يتأسفون على ذالك؟ وهم يشعرون من التوحش بغياب هذه الروح الكريمة ، بما يشعر به الغلام الذي فارقته أمه ، أو بما يشعر به الحبيب الذي فارقه حبيبه... ولماذا لا يتأسفون على ذالك وهم بعد ما ألفوا من مجلس هذا البحر ما ألفوه من لطائف العلم ودقائقه ، سيبقون حينا من الدهر لا يرونه ولا يسمعون منه قولا، اللهم إلا ما ترك لهم من النفائس والذخائر التي يرجون إليها عندما تشتد بها الحاجة وتدعو إليها الحوادث...

أسباب النقل تتضاعف للمسلمين:

بأي شيء نشبه هذا المشهد؟ وبأي شيء نقيس هذا الأمر؟ آلاف من الناس يستعملون كل أسباب النقل لحضور هذا الدفن المحزن الذي يسلب اللب والعقل ويغادر الإنسان سريعا ممقوتًا !، إن القطارات لم تأل جهدًا فيقطع مسافات بعيدة دونها كل تعب ودونها كل مشقة وإن السيارات لم تقصر عن حمل بعثات عديدة من الذين يهمهم ما يهم غيرهم من المشاركة في هذا الموقف الذي كله أسف وكله كآبة ، وإن الخيل والبغال

والحمير تنقل الأفراد نقلا غير منقطع كأنهم يؤمنون الكعبة المشرفة في أيام الحج؛ أو يتسابقون إلى إجابة الدعوة الأخيرة..

وإذا كان مرض هذا الإمام مرضًا لكافة المسلمين في هذا القطر الأسود فقد أصبح موته موتًا لهم ودفنه في القبر دفنًا لهم...

إن هؤلاء المسلمين لا يكادون يصدقون الأطباء الذين نطقوا بأنهم لم يروا أي داء في هذا الجسم اللطيف الذي كانت تسكنه تلك الروح اللطيفة، إلا أن مداومة الجوع قد أفرغت ما كان فيه من القوة وأدت إلى هذا الضعف الذي يتظاهر لكل أحد ممن يلازمون حضرة الإمام!!..

كيف يصبر على الجوع من لم يزل يطعم آلافًا من المساكين ويرفع عنهم مشقة القوت وثقل العيال؟

وكيف يداوم التعب من لم يأتيه من الهدايا ما لا يستطيع الحساب أن يأتي بعدده؟

إن حياة الإنسان لا يخلو من العجب. وإن حياة العظماء في ما وراء ذالك أشمل بالعجب!

إن العظماء يشيرون دائمًا إلى ما وراء هذه الحياة الشقية من الحياة الباقية السعيدة وإلى ما بين الروح والمادة من المسافة البعيدة، إنهم يجاهدون أنفسهم مجاهدة طويلة يملكون أثناءها ما يملكون من السيطرة على الأهواء والتغلب على المشاعر، إنهم يحاسبون أنفسهم ويراقبونها مراقبة تمكنهم من زمها وقيادتها إلى السعادة الأبدية.

إن العظماء هم العظماء هم لا يحول شيء بينهم وبين هدفهم الوحيدة الذي هو إفناء حياتهم فيما يرضي رب العزة سبحانه وتعالى؛ إن هذا الرجل العظيم الذي أفرغ الجوع قوته وتركه بين أولاده وأصحابه ضجيعًا ينظر إليهم بعين الرحمة وينظرون إليه بعين

الشفقة لقد كان في وسعه أن يحوز الكنوز ذهباً وفضة ولكنه يرى ذالك كشيء لم يكن له أي فائدة..

إنه يفضل الجوع على الشبع بل يختار الفقر على الغنى ويشير بذالك كله إلى هوان هذه الدار وضعفها وإلى أن الآخرة خير وأبقى !!...

دقيقة صمت وساعة الكتاب:

إن الإمام الذي كانت رؤيته شفاء للصدور وثلجاً للأكباد أصبح اليوم يتهيأ إلى هذا السفر القريب البعيد والناس ينتظرون ، وأحد أبنائه يضع كفه تحت صدره ويقرأ سورة من سور القرآن "يس" إلى أن انتقلت روحه الطاهرة إلى المقر الأسني وهم يشهدون..

إذا كان من عادة المؤمن أن يتلقى كل مصيبة بصبر وجلد فإن المؤمنين لا يستطيعون اليوم إلا إفراغ ما في عيونهم من الدمع ، وما في أكبادهم من الدم سيما وقد حان لهم أن يقوموا مع القائمين للصلاة على إمامهم الكريم ، وإرساله إلى حفرة القبر...

إن رجال الشرطة ينظمون لكي لا يقتل الناس بعضهم بعضاً وهو لا يعلمون...

إن رجال الدين يصطفون حول المسجد في طهارة كاملة وانتظار دائم.

دقيقة لم تتبعها أخرى إلا أغرقتهم كلمة التكبير في بحر من السكوت كأن لم يكن في المشهد إنسان.. هكذا تلك الكلمة تجمع المسلمين في جو من الصمت والتأدب ، وفي جو من العطف والوقار كأنهم إذا قال المسمع: الله أكبر !! أشخاص لم تكن في صدورهم أرواح، ولم تكن إلا أربع تكبيرات يسلم عنها الإمام ويسلم المأموم بكل سكون وبكل أدب فيتسابقون إلى حمل النعش والترك به ويستدلون الجسم الكريم إلى مسكنه الأخير ويحثون عليه التراب ثم يقرؤون ما شاء الله أن يقرؤوا من الأدعية والأذكار.

ولما حثونا الترب فوق ضريحه جزعنا ولكن أي ساعة مجزع

وإن لم يكن هذا آخر عهد بينهم وبين هذا الكريم فسيكون عهدًا جديدًا يقتضي منهم ما يقتضي منهم مما لا يخفى على أحد.

إن هذا العهد عهد تذكر واستحضار لا عهد مصاحبة ومعاينة ؛ إنه عهد محافظة على الآثار وعهد مراعاة لكل ما سبق من العهود والأذمة على وجه أتم وأكمل...

بعض قصائد في رثاء الإمام

ولهذه المناسبة انبعثت نفحات من قرائح الأحباء والرفقاء من المدائح والمراثي ما لا يسعنا الإتيان بكله ، ولكننا نُمتعك أيها القارئ بشيء منها لكي تشاركهم في هذا الموقف ولتحيا معهم هذا المشهد.

وهذا الشاعر الموريتاني "التجاني ابن باب العلوي" يقول:

بدر الكمال ومصباح الدجى أفلا   ترضون يا خير قوم بالقضا أفلا

واسود ليل الصفا لما اختفى وعفا   ما للورى من محل في قرى وخلا

نعى الإمام لنا الناعي فقلت له   هلا عطفت عليه العلم والعملا

مهلا نعى بفيك الترب فهت بما   من أجله كل شجو في الحشا دخلا

مقالك المرء لا أصبحت ذا فرح   من الهموم به ألبستنا حللا

نعيت خير إمام كان يرشدنا   وكان يمنعنا الإضلال والزللا

أعني الإمام الهمام الحاج مالك، من   أمست مآثره بين الورى مثلا

إلى قوله:

أحيا من الدين ما قد كان مندرسًا   ولم يزل بعلوم الشرع مشتغلا

وبثها في قرى الإسلام محتسبًا   حتى غدى علماء قومها الجهلا

له تآليف لا يحصى فوائدها   ولا ترى خللا فيها ولا مللا

وبث علما صحيحًا في الصدور لكي	ينال كل مرام جد وارتحلا
وصار للحرمين الأكرمين إلى	أن زار خير الذي تلقى إليه إلى
محمدًا خير خلق الله قاطبة	صلى عليه مع الآل الإله علا
ما أمه زائر يبغي العلا، وعلى	أزواجه وعلى أصحابه الفضلا

إلى آخر القصيدة.

ويقول أيضا:

إذا أنت قد أنبتت يا أرض مالك؟	أما كنت في حزن على الحاج مالك؟
فهلا بكيت الدهر يا أرض مالكا؟	بحسن المساعي خصه خير مالك
بكى فقده زيد الأنام وعمره	ومن فقده حزنا بكت أم مالك
بكوا سالكا سبل المعالي تخاله	إذا أنشأ الأشعار كعب بن مالك
وكابن أبي زيد نوادر فهمه	محررة أحكام مذهب مالك
وحسبك إن رمت الحديث حديثه	وتحوي به إن تنح نحو ابن مالك
وإن رمت منه المال فالنفس قائل	لها بلسان الحال جودي بمالك

إلى أن قال:

جزاه إله العرش خير جزائه	وحفته بالرضوان رسل الملائك
ولا زال يهمي الدهر ساحة قبره	بروح وريحان غمام الحبائك
وفي الجنة العلياء كان انكاؤه	مع العرب الأبكار فوق الأرائك
ومن دره المكنون قبل وفاته	تحلى أبو بكر بتبر السبائك
ومن بعده بالأمر قام ولم يهن	وحاز الذي أبقى له من ترائك
لدى بابه تقضى حوائج كلنا	وفي أرضه لم نخش شوكة شائك

أبو بكر إن زفت إليه خلافة تكن إذ رأت كفؤا لها غير فارك

إلى أن قال:

لئن هلك الحاج الممجد مالك وصار دفينا إنه غير هالك

غدى تاركا من كان في المجد مثله وما مات ميت تارك مثل مالك

حذى حذوه في العلم والحلم والندى وفي كونه يثني به فتك فاتك

ومن ربنا الرحمن جل جلاله صلاة وتسليم على ابن العواتك

مع الآل والصحب الكرام وكل من به يقتدي من شافعي ومالكي

كشيخي محمد العارفين وقطبهم إمامي أبي العباس غوث الضرائك

ومن بأبي العباس يضحك يوم لا ترى الناس إلا بين باك وضاحك

* * *

وهذا الشاعر الأديب محمد بن عبد الله بن "ففا" العلوي يقول لما زار ضريح الإمام :

خليلي عج وانزل بساحة ذا القبر تزره لإصلاح المهم من الأمر

كإصلاح أخرانا وإصلاح أرضنا ومحو خطايانا وما كان من وزر

ففي القبر ما كنا نؤمل في قضا حوائجنا من حيث ندري ولا ندري

ألا أيها القبر الذي ضم جسمه ضممت الذي فاق البرية في الدهر

ضممت جمال الدين بدر كماله وشمس هداة في الظهيرة والعصر

إلي أن قال:

حمدنا الذي قد خصنا بطريقة ومتعنا من بعده بأبي بكر

فلا غرو في شبل حمي غاب ليثه ولاغرو في بحر إذا ناب عن بحر

ولاغرو أن تعطـي الخلافـة سـرها   لمن كـان بالصـدق سمـي والحـبر
فقـام لنـا مـن بعـده بوظـائف   لحاملها حمل ثقيـل علـي الصـدر
فشـد لهـا أزر الخلافـة قائمـا   ولا بـد للأمـر الثقيـل مـن الأزر
خليفتـه الأول بقولـة قائـل   له الرتبة العلياء مـن رتـب الشعـر

إلي آخر القصيدة.

وهذا أستاذنا الفريد السيد القاضي محمد بن عبد الرحمن بن السالك يقول وهو واقف أمام الضريح:

جـزا الله بالإحسـان صـاحب ذا القـبر   وأعطـاه أوفى مـا يأمـل مـن أجـر
وآنسـه فيـه ولا زال حاميًـا   عليه مـن الرضـوان مـن نحس القطـر
فكان لنـا مـن قبـل ركنـا ميممـا   نلـوذ بـه مما نحـاذر مـن شـر
وأبقى لنا ذكـرًا لـدى النـاس عاليًـا   ومـترل عـز دونـه أنجم النسـر
وقـد كـان بـرا بالعفـاة أبًـا لهـم   علـى أنـه قـد كـان أجـدر بـالبر
بـنى في القـبر للسـينغال هديـة   ألـوف الزوايـا حشـوها حلـق الـذكر
بكته الـورى لمـا تـولى وأصـبحت   قلـوب الـورى مسـلوبة حلـل الصـبر
فلـم أر شمسًـا قبلـه ضـمن حفـرة   ولا قبلـه بيتـا مشـيدًا علـى بحـر
ببابـك سـفر أحوجتـهم همـومهم   إليك وكم حققـت مـن حاجـة السـفر
دعونـا بـك المـولى لحفـظ طريقنـا   وإيماننـا والأمـن في موقـف الحشـر
وتثبت فـوق الجسـر أقـدامنا فـلا   تزل بنا الأقدام عـن ذالـك الجسـر
ولا خـاب في أمـر أردنـاه سـعينا   ولا زال عنـا العسـر يطـرد باليسـر
وتجعـل في طاعاتـه حركاتنـا   وينسـؤ دهـرًا في بقـاء أبي بكـر

فقد حمل العبء الذي كنت حاملا وقد قام في الإسلام بعدك بالأمر

وقد وجدت فيها لخلافة كفؤها وجاءت إليه وهي منه على خير

تولت به الأحزان إذا غبت مثلما تولى الدجى إذا غابت الشمس بالبدر

فكما كان غير الذات منك مغيباً فلفظك في طي ومعناك في نشر

فلاح عليه نورها وهو ساطع وراح عليه خافقًا علم النصر

فيعمل ما قد كنت لله عاملا فلم تمش إلا وهو منك على أثر

إما هدى يعطي المكارم حقها صفوح عن الزلات ذو منطق نزر

إلى آخر القصيدة.

وهذه القصائد الأربع من الأدباء الموريتانيين الذين تشبه أشعارهم بأشعار الجاهلية واستعماله باستعمالها لمشاركتهم إياها في قضاء أيامهم في الصحراء وفي البداوة وفي شدة ارتباطهم بجزالة الكلمة ورقة المعنى فإنهم يحذرون حذو المتقدمين ويختارون نظامهم على نظام المعاصرين الذين تحضرت أشعارهم بتحضرهم وتمدنت بتمدنهم مما يخالف كثيراً نظام الجاهلية.

مالك بن عثمان

ولماذا تبلغ عظمة هذا الإمام في قلوب الناس هذا المبلغ؟ ولماذا كانت محبة المسلمين له أعظم من محبتهم لأنفسهم وأموالهم وأولادهم ! ولك في ذالك أيها القارئ حياة كاملة كحياة كل عظيم من عظماء التاريخ.

هذا مالك بن عثمان بن معاذ بن محمد ؛ وأبوه عثمان من الذين لهم حظ في العلم وحظ في الشجاعة ؛ كان عالمًا وكان شجاعًا وهو لم يبلغ الثلاثين من عمره وكان من أجمل أقرانه لا يشغله إلا ما يشغل أهل الفضل من الدين والصلاح. وكان أبوه معاذ بن محمد يحبه من ذالك حبا جما بل كان يوافقه على مغادرة الوصف للتجول في البلاد وملاقاة علماء الوقت لأن في الخروج والسياح في الأرض علما آخر... فأخذ يطوف الآفاق ويتتبع آثار الفحول وما أقلهم في ذالك الزمن إلا أنه كان موفقا إلى ملاقاة بعضهم من الموريتانيين والسنغاليين. وعثمان هذا يتلقى عن العلماء ما يتلقى عنهم من العلم كعادة كل صالح وكل كريم.

إنه يتلقى عامة عن العلماء وخاصة عن البحر الغزيرة السيد "محنض بابه" الديماني الذي أفاده بعلمه إفادة جمة بل دعى له بالخير والبركة. ثم لما تركه مر بالسيد العالم الأستاذ "مالك صو" الذي كان من كبار علماء الوقت وانتفع به ما شاء الله أن ينتفع به ثم توجه إلى الأهل بعد قضاء هذه المهمة شأن كل ذي عفاف ومروءة.

وفي سبيل رجوعه هذا نزل في دفاع "قرية صغيرة قرب دغنه" ليتعارف مع السيد الأديب والشيخ الأريب السيد الفاهم "مير" وهناك تلاقى الرجلان وتحدثا معا في كثير مما يتعلق بالعلم والدين وعرف كل واحد منهما قيمة الآخر وهناك أيضاً يرى السيد الفاهم أن لا تكون يد شقيقته إلا في يد هذا الضيف المبارك الذي يرجى له مستقبل باهر. إن هذه الشقيقة – وهي السيدة فاطمة –كانت من النساء اللاتي لا يستطعن أن يكن تحت ظل كل رجل بل كانت من اللاتي يرين الصلاح والإحسان أكثر مما يرين المال سيما وقد توسم في

وجه هذا الضيف لائحة من لوائح الخير والبركة ؛ إلا أن الضيف مع ما كـان يخفـي في أعماق قلبه من الاحتياج إلى التزوج لم يسارع إلى القبول لأنه يحب أن يشاور والـده في ذالك قبل كل شيء.

إنه يرى أن للوالد عليه حقًا وأن القبول دون مشاورته فشـيء لا يجيـزه الأدب ولذالك صارح السيد الفاهم بما في قلبه من التردد إلا أن هذا الأخير كاشـفه مكاشـفة عجيبة واستوجب له الأمان على أن والده سيرضي بذالك فقبل قبولا ما بعده شك فكان ما كان...

هكذا العظماء يحبون العظماء ويتبرك بعضهم ببعضٍ ... فهم يتضامنون ويتعـاونون لله لما يعرفون من أن الخير كله في التضامن والتعاون ولم يزل هذا دأبهم من أول هذا اليوم ولا يزال دأبهم إلى اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم !

وبعد حفلات الزواج بقليل مضى السيد عثمان إلى سبيله وكان في نيته أن يـزور السيد الأديب المحترم إمام النحو واللغة الأستاذ محمد المختار "الككي" وكان صديقا له في الحياة وزميلا في المدرسة... ولما رآه الككي مقبلا يمشي وراء جمله مشيًا هادئًا ارتمى إليـه وعانقه بل أخذ يمازحه صبي لصبي مثله ؛ ومن حين ذالك التفت إلى الجمل ورأى ما عليه من الحقائب والأعفصة فسأله عما فيها فأجابه بأن لن يكن فيها إلا الكتب فقال له الأستاذ الككي: أو أنت تحتاج إلى كتب لم تكن في خزانة والدك ولا في خزانة والدي؟
فأجاب: إن هذا الكتب التي أتيت بها لم تكن في بيت أبيك ولا في بيت أبي أيها الصـديق! فقال الأستاذ: نعم! ولكن المعرفة هي المعرفة سواء أمامها الجديد والعتيق...فأخذا يتباحثان كل مشكلة من المشاكل وفي كل حادثة من الحوادث. والأستاذ الككي هذا ألف في النحو كتابا تتداوله أيدي الطلبة من كثرة ما يجدون فيه من الدقائق واللطائف ما لا يجدونـه في غيره من الكتب النحوية. إلا أنه – يا للأسف – نهشته حية وهو يصلي العشاء في المسجد فتوفى بعد ساعة وهو في الثلاثين من عمره رحمة الله عليه وعلى موتى المسلمين !

ومما رثاه الأستاذ الكبير القاضي مَجَخَتِكَلْ الذي على الله توكل هذه القصيدة الهمزية المشهور:

نعى لي ناع أبرع العلماء ... وأسبقهم في نهية ودهاء
وأنبأني أن ساورته ضئيلة ... من الرقش والحراب وقت عشاء
فسالت على الخدين مني أدمع ... متى تمرها راحتي تفض بفجائي
الله عين أنفدت عبراتها ... بكاء فظلت تنهمي بدماء
تحرق مني الصدر حتى كأنما ... به شعلة تشويه كل شواء
لئن ركب الحدباء يوما محمد ... لقد حملت ذا رتبة وعلاء
فليس وإن حل المقابر مبعدا ... بلى إن من تحت اللحود لناء
لقد جلب الناعي الككي محمدا ... لنا ضحوة الاثنين عظم بكاء
فوا فائق الأقران سيد جيله ... رئيسهم في فطنة وذكاء
أتمهم عقلا ودينا وشيمة ... وأبهرهم في جودة وبهاء
فأين من الإخوان حبر مشاعر ... نماريه في الأشعار كل مراء
وفي النحو والأوزان والعلم كله ... نباهي بلا ذنب لنا وقلاء
ألا ما النياح والتفجع لائقا ... بمن هو مات ميتة الشهداء
وجالت بآفاق البلاد سماته ... كما قد فشى المختار كل فشاء
وكان قرير العين منذ حياته ... بمال وأولاد له ونساء
ألا قصر عمر في اشتهار كطوله ... فلا خالد من كان تحت سماء
وما الموت إلا موعد الناس كلهم ... فلا بد من إتيانه ولقاء
وإن كان من صاب أشد مرارة ... فذوق المنايا سابق بقضاء

والسيد عثمان لم يبق هناك من صديقه وزميله إلا أياما قليلة ذاق معه فيها صديقه، حلاوة المذاكرة. فلم يلبث أن ودعه توديعًا جميلا ومضى في سبيله الذي يقوده إلى أهلـه ليقضي عندهم فترة من الراحة وليأنس بهم قدر الحاجة ثم ليكن بعـد مـا شـاء الله أن يكون...

ولكن هذا كله حجاب لا يعرف ما رواه من القوارع. فليس في استطاعة الإنسان أن يعرف ما وراء حجاب القدر ، ذالك الحجاب الكشيف الذي لا سبيل إلى التفرج فيه مهما يظهر لنا سهلا ومهما يبدو لنا متراخياً.

ما وراء الحجاب؟ يا للأسف ! لقد صادف أن البلاد لم تكن في ذالك الوقت تحت حماية أي قوة بل كانت مقسمة مناطق متباينة يتولى كل منطقة منها جبار عنيد يقتل النفوس وينهب الأموال ويفعل ما يريد. فكل جبار تغلب على جبار آخر يقتله ويأخذ جميـع مـا عنده من النساء والأعلاق ويثخن في إتباعه إثخانا شنيعًا. وكان أهل الـبلاد لا يحبـون التآلف ولا التحالف ، أو كانوا لا يعلمون ذالك ، بل يمكث كل واحـد في منطقتـه لا يغادرها ولا يرتحل عنها ...

ثم لا معيشة إلا ما يخرج من الأرض من الزرع القليل الذي لا يغنيهم شيئًا و إلا ما يأخذه أهل المكر من الجبابرة بعد الإفراط في المدح والإلحاح في الطلب ، وكان هذا سببًا لعجزهم وكلهم من ذالك العهد إلى هذا اليوم.

إن حياة النهب والطلب لا تزيد الإنسان إلا كسلا على كسل وإن الإقامة المستمرة في بلد لم يكن فيه علم ولا مال لا تزيده إلا جهلا على جهل. وفي بعض هـذه الغـارات ذهب قيل من الأقيال اسمه تنور فاطم ، مع عدد جم من الكفار للإثخان في أهـل كَيَـلْ (جُلُفْ). فلما سمع المسلمون بذالك انضموا إلى السيد عثمان لأن من عادة تلك الـبلاد الانضمام إلى كبيرهم إذا اشتد أمر من الأمور وإن من عادتهم أيضا إتبـاع كـبيرهم في

الظاهر والباطن لا يخالفونه في شيء ولا يعصونه ما أمرهم ويفعلون ما يـؤمرون. فلمـا اجتمعوا على هذا السيد وهو أعلم بأحوال الجبابرة قال لهم عامة ولولده القادم خاصـة: "إن هؤلاء الكفار لا بد ينهبون الأموال ويسبون النساء". ولكن جواب الابن لم يكـن إلا كلمة كلها شفقة وكلها إعجاب . فإن هذا الابن الكريم قال لوالده: "إذا تعرض الكفـار لهتك حرمة النساء فإني أقاتلهم ما بعده نجاة وسيكون مدفني وراء المسجد" وكان هـذا الكلام قد وقع في قلب الشيخ موقعا شديداً لأنه لا يعرف هذا الولـد ويعـرف طبيعتـه ويعرف ما وراء هذه الكلمة من خطر. إن الكفار هم أكثر عددًا وأشد عدة من أهل البلد وإنهم في ما بعد ذالك أهل خبرة ودربة بالحرب، يعرفون من الحنكات الحربية ما لا يعرفه المسلمون في هذه الوقت لقلتهم وعدم تمكنهم من مشاركة الكفار في ميدان القتال.

وهذا الشباب الذي كان أفهم أهل زمانه قرآنًا وعلمًا وأحسنهم صـوتًا وأجملـهم وجهًا يريد أن يدافع عن الدين وعن العرض والمال إذا أراد الكفار هتك حرمة أهله.

ولم يكن بعد هذا إلا دقائق حتى أخذ صليل السلاح وصهيل الخيل يقرع الأسمـاع فنهض كل من كان في المنزل للدفاع ؛ الشباب يثبون على ظهور الخيل والأشياخ يبذلون الجهد وذالك كله للدفاع ، وما أشد هذه المعركة التي مات فيها كثير من الناس ، ولما ير الكفار سبيلا إلى هزم المسلمين الذين كانوا يرون أن الموت في سبيل الدفاع موت ما وراءه إلا الجنة أدبروا هاربين وأتبعهم السيد عثمان الذي كان الدم يغلي في عروقـه لكنـه لم يتجاوز ميلاً أو ميلين إلا أصابته إحدى الفشكات فمال إلى الأرض . ولما رأى ذالك أخوه الشجاع عبد "خج" تبعهم ولم يزل يضربهم برصاصاته إلى أن قتل منهم من قتـل ومـن جملتهم قيلهم الملعون (بريمب) الذي عجل الله بروحه إلى النار . فتوفى هذا الشباب بعـد حين وهو في الثلاثين من عمره رحمه الله !

قد مات الشباب الحافظ المتقن شهيداً بالدفاع عن الدين وعن حرمة الأهـل ، إن هذا الموت لعجبًا وإن فيه لإعجابًا: شاب يتوفى وهو يعلم أن كريمـة بيتـه يضـطرب في

أحشائها جنين وأن هذا الجنين إن كان ولد يسمى بمالك بن عثمان ويكون له شأنه عظيم في الإسلام ! ولذلك أمر بتقسيم تركته إلا الكتب التي جعلها كلها للولد الآتي الذي يتمني رؤيته والتمتع به حينا من الدهر ، إلا أن القدر أبى أن يساعفه في ذلك وارتقى بروحه إلى لقاء الله جل جلاله وعز كماله...

شأن الطفل

مرت على ذلك أيام والسيدة فاطمة تكابد مشقة الحمل وتقاسي وحشة الحداد إلا أنها ترجو من الله ألا يأتي إلا الخير وهكذا رجاء المؤمنين والمؤمنات لا يأتي إلا بالخير .ولما حان لها ما يحين للنساء وصبرت غلي ما كان يغشاها من الحزن والألم رزقها الله بأبهى وأجعل ما يكون من ولد فسمته علي وصية الوالد بمالك بن عثمان ! وكانت العناية بشأن المولود مشكلة لا تخلو من خطر...

توافق الكل على مساعدة الكريمة في تغذية طفلها وتربيته حسب ما يقتضيه حسبه ونسبه سيما وقد عرفوا ماله من الشأن في المستقبل .ولم تزل هذه العناية تتزايد إلى أن بلغ الولد السابعة من عمره فاجتمع أعمامه في "جلف" وذلك لكى يبعثوا عددا من الرجال الكرماء إلى "دوفال" لزيارة الطفل وللتحدث مع والدته في تربيته وتعليمه. فكان جواب أقارب الأم أن لا يمكن ترك هذا الولد يخرج من ظلهم لأن ذلك غض من القيمة وطعن في الكرامة بل إهانة للنفس...

فكيف يترك الإنسان فلذة كبده وحبة قلبه تضل بين هذه المسافات البعيد؟ ولكن هذا الجواب لم يرد عزم الوافدين بل زادهم عزمًا على عزم فتنازع الفريقان تنازعًا تطلب من السيدة الكريمة أن تلفظ بكلمة الفصل التي تسكن هذه الحدة وتنشر الخير بين المتنازعين.

فقالت وهي في غاية الاطمئنان: "ما أطيب بقاء ولدي عندي ولكنني أختار لـه أن يذهب إلى أعمامه ؛ فليذهب معهم ولتكن تربيته في دار أبيه المرحوم وبين يـدي جـده الكريم"، فمضى الغلام مع من مضى إلى دار والده ليقرأ هناك القـرآن وليحيـا حيـاة الموصوفين بالخير وليسلك مسلك رجال الدين الذين بين أيديهم تترقى الروح إلى الحضرة الإلهية العظمى ! وحينما وصل إلى جده الوجيه الذي كانت حياته كلها حيـاة الخدمـة والعمل في سبيل السلام ابتدأ القراءة ولازم ظله مدة درس أثناءها القرآن الكريم وحفظه بحول الله وقوته...

ثم لم ينشب أن يرجع إلى أمه ليمتعها بالنظر إلى وجهه الجميل الذي كان يختلط فيه الحسن بالمهابة فمكث عندها حينا يجود القرآن كما هي العادة إلا أن رجلا من أهل الخير أمره بطلب العلم بعد إتقان كتاب الله.

إن التوقف على الترتيل مما لا يهم إلا السفهاء الذين لم يكـن شـأنهم تعليمـا ولا إرشادا؛ السفهاء الذين يطوفون الآفاق للترتيل فيؤمهم لذالك النساء والصبيان... نعم ! إن الاهتمام بالتعلم والتعليم خير من التوقف على الترتيل. فكر الشـاب في هـذا كلـه وعرف أن الحق ما قاله الرجل وأن من العقل موافقة أهل العقل على قضـيتهم واتبـاع أمرهم.

الوحي والإيعاز:

إن من الله لوحيًا في الباطن وإيعازًا في الضمير يعرف بِهما شأنًا عظيما وأن مـن الله لإشارة لطيفة ينبه بها إلى شيء عظيم ولذالك قد عزم الشباب على أن يتلقى العلم عـن ذويه وعلى أن يتتبع آثار الفحول. فلما عرف خاله "الفاهم" هذا العزم أخذ يشجعه على ذالك وأحب أن يكون هو الأول من يعلمه شيئًا من المختصرات. وذات يوم ألقى إليه أول درسه وأعطاه إذنًا في الطريقة المحمدية التجانية وأجازه فيهـا بعـد مراعـاة الشـروط

المشروطة... ثلاثة أمور في يوم واحد ! وأشار إلى ذالك كله على أنه وصية ! فنعم! وسيحقق تلك الوصية أمور أخرى...

فلم يلبث الشاب أن يشعر بما يدعوه إلى الرحلة لأن في كنف الأم والخال ما يمنعه من محاربة النفس والهوى وفيه ما يذوده عن بذل الهمة في تحقيق رغبته ومشروعاته ؛ فاهتم بمغادرة مسقط رأسه مرة ثانية ولسان حاله يقول:

ألم تعلمي يا دار بلجاء أنني إذا أخصبت أو كان جدبًا جنابها
أحب بلاد الله ما بين مشرف إلى وسلمى أن يصوب سحابها
بلاد بها عق الشباب تميمتي وأول أرض مس جلدي ترابها

ولما كانت لكل بلدة عادة والعادة هنا أن يشتهر كل أستاذ بكتاب يجتهد في تعليمه ونشره بين الطلبة غادر الشاب دار أمه وارتحل إلى السيدِ "مكي حوا" ليتم عليه قراءة مختصر الإمام الأخضري ثم إلى العالم السيد محمد "جوب" ليقرأ عليه رسالة ابن زيد القيرواني وإلى الشيخ "كل سي" ليقرأ عليه شيئًا من النحو ككتاب أجروم وملحة الإعراب الذي قد اشتهر هذا الأستاذ بنشرها ، وبعد ذالك ذهب إلى الأديب "مسل مان" في "جل دَرَمَانْ" وقرأ عليه ألفية ابن مالك وأتقنها إتقانا عجيبا. فأوحى له قبله بالتوجه إلى أهل الحضارة لأنه يعرف من طبيعته أهل البداوة ما يعرفه منها مما يشبه بالخشونة ولا يحب أن يكون قلبه خاليا من التهذيب ولا يمكن ذالك إلا مع المتحضرين من الأساتذة الذين يزينون علمهم به ويحققون رجاء الدين والإنسانية، هذا الدين وهذه الإنسانية الذين كانا يتأسفان على ما فيه أئمة القطر من شدة الاستمرار في النوم...

فلما نظر في كله قام إلى جزيرة "قديس لويس" ليتلقى هناك المقامات الحريرية عن الشيخ الأديب المحترم والأستاذ الكبير المعظم "أحمد أنجاي ما بيي" ولم يزل يعامل زملاءه في المدرسة معاملة حسنة ويدرس بعضهم فيها تدريسًا محكما إلى أن اشتاقت نفسه رؤية أمه الكريمة وزيارة أخواله الكرام فذهب إليهم بحول الله تعالى! وكانت هذه الرغبة تعقبها رغبة

أخرى تتطلب من الشاب أن يضحى بوقته وراحته في سبيل العمل ولذالك لم يكد يصل إلى مسقط رأسه حتى خطر في قلبه ما شوقه إلى زيارة فحول الطريقة المحمدية التجانية. وكان أول من رأى منهم الشيخ محمد علي "اليعقوبي" الذي تلاقى معه عند خاله "الفاهم مير"؛ ولما رجع الإمام اليعقوبي إلى وطنه تعلق قلب الشاب بالقدوم إليه ليباحثه قليلا في أمور التربية وليحظى بنسخة من كتاب "منية المريد" الذي لم يكن حينئذ في يده.

فلم يلبث أن يحرك عاملتيه إلى ذالك الوجيه ليقضي عنده مهمته؛ ولكنه لما وصل إليه أمره بالرجوع لمعرفته بحاله واحتياج أمته إليه. إن المسلمين يحتاجون في هذا الوقت إلى هذا الشاب الذي بلغت به قوة الإيمان وقوة الحب مبلغا لا يتركه يعتزل عن إرشاد أهله وأمته؛ إنه شاب ولكنه لا يهمه إلا ما يهم الفحول من تربية النفوس وتربية الأرواح وقيادة النار إلى سبيل الخير والسعادة إنه شاب ولكنه لا يطلب له الخاطر إلا إذا أدى هذا الواجب الذي هو إرشاد الأمة السوداء مهما أمكن له ذالك! هل يكون ذالك على نظام التوغل أو على نظام التأني؟ إن في التأني لخيرًا كثيرًا وإن في التوغل لشرًّا عظيما. بل إن في مخالطة الناس في أول وهلة لخطرًا جسيمًا؛ ولذالك وصاه السيد العلوي وصية تامة يقول فيها بعد كلام:

"وآمرك بتقوى الله تعالى والتيسير وعدم التعسير على الإخوان وعدم مخالطة الخلق إلا بقد الضرورة حتى يكمل المراد وتصير أمير نفسك مع ما يلقي إليك ربك كما آمرك بكثرة ذكر الله جل جلاله في السر والعلانية وغض الطرف عن الدنيا الفانية وعدم الاعتراض على أحد فيما أقامه الله تعالى عليه بل أقول لك إذا قدمت أيها المريد على بلدتك فاثبت على طلب إرادتك... وكيفية الثبات عليها ألا تتخذ خلا إلا خلا يدلك على الله تعالى! عالم القلب، عالم اللسان. ولتكن مخالطتك له كشرب الدواء لا يشرب إلا لزوال علة؛ واحذر مخالطة أبناء الدنيا وهم الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وعندهم ما يحتاجون إليه من فرض العين... وأما غيرهم ففراعنة ودجاجلة؛ ففر منهم إن كانت لك حاجة بنفسك، واذكر قول الله تعالى: ﴿ فاستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم؛﴾.

ودع الشاب شيخه "العلوي" وأودع قلبه حبا جما بل ودعه وفي محفظته وصية جامعة تعينه على محاذرة الناس وتقويه على القيام في أمره والانتفاع بعلمه. وكان حيثما قدم في غاية الحيرة لأنه لا يحب أن ينصب كرسي التدريس عقب هذه الزيارة الميمونة. وأنه يرغب رغبة خالصة أكيدة إلى أداء فريضة الحج وزيارة رسول الله ﷺ في المدينة المنورة والتجول كثيرًا في البلاد الشرقية ليتمتع هناك بالثقافة العربية الإسلامية وليحيى سنة التعارف التي ذكرها الله جل جلاله في كتابه العزيز حيث يقول:

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ . (١٣) الحجرات.

وقد وافقه القدر على هذه الرغبة الشديدة وذهب مع من ذهب إلى بيت الله الحرام لأداء تلك الفريضة القيمة عند الله وعند الناس وهو يقول في سبيله:

وهائل زاخر الأمواج مرتكم   قطعته قاصدًا للحل والحرم
كمل إلهي يا رحمن حجتنا   وخلصنا بجاه الشافع الحكم
عن الرياء وعن عجب وعن كبر   بل نقين سيرنا عن سائر التهم

إلى آخر القصيدة.

فلما وصل لم يكمل حجة حتى وقف أمام الكعبة المشرفة وقلبه ملآن بحب الله وحب كعبته وكبده يتصدع مما يقاسيه من الخوف والرجاء فقال وهو يرد توديع البيت:

أستودع الله ربي كعبة الله   وكلما حولها يا كعبة الله

وبعد ذالك توجه إلى مدينة الرسول ﷺ لزيارته وشم تربة وروضته واستنشاق النسيم تحت ظلال النخلات في هذه العاصمة الروحية الإسلامية القديمة التي فيها ما فيها من الآثار والتي لا محيد عن رؤيتها وزيارتها فقال:

زُرْتُ الْحَبِيبَ الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ   عَلَيْهِ أَلْفُ تَحِيَّاتٍ مِنَ اللهِ

زُرْتُ الْحَبِيبَ الَّذِي عَمَّتْ رِسَالَتُهُ عَلَيْهِ أَلْفُ سَلَامَاتٍ مِنَ اللهِ
زُرْتُ الْحَبِيبَ الَّذِي أَسْرَى الإِلَهُ بِهِ لِقَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى مِنَ اللهِ

إلى أن قال:
زُرْتُ الْحَبِيبَ الَّذِي مَا بَيْنَ مِنْبَرِهِ وَقَبْرِهِ رَوْضَةٌ مِنْ جَنَّةِ اللهِ

وهل يمكن الوصول إلى تحقيق هذه الرغبة التي هي التجول في البلاد الشرقية والتي تمكنه من الحصول على كمال المعرفة في الشرق والتمتع بثقافته الخالدة ؟ إنها لرغبة خالصة وإنه لا يمكنه التغافل عنها ؛ فكيف يفعل وكيف يتحقق له ما يرجوه في ذلك ؟ إذا كان التوغل جهلا وحماقة فإن المشاورة هي عقل وحذاقة . فكيف يشاور ضيق غريب من الإفريقيين أكابر هذه الأمة الشرقية البيضاء؟...

وكيف يكون الجواب إذا شاورهم في كل هذه الأسئلة التي تهاجم عقله وتحمله على التردد ؟ إلا أنه آخر الأمر تحدث مع عالم من علمائهم أجابه بهذه الكلمة : ((إذا أديت فريضتك فلترجع إلي أهلك ، فإنك إذ جلت في هذه البلاد ترى ما يدخل الشك في قلبك وأنت لا تصبر على التكلم فيه فيأخذك من الأذى والضرر ما ينسيك دينك وحياتك ...ثم قال : هذا زمان السكوت ولزوم البيوت قائل الحق يموت أو يضرب بالنبوت !)) نصيحة خالصة لوجهه الكريم ! ما بعد هذه النصيحة إلا الرجوع ولذلك رجع الإمام إلا الوطن...
وقال في بعض قصائده مستشهدا بما ذكره له ذلك المدني :
هذا زمان سكوت مع لزوم بيو ت قائل الحق يعصي دون عصيان

وقال أيضا في محل آخر:
الصمت حكم ولكن قل فاعله فلازموه لتنجو من مصيبات

مشكلة من أخطر المشاكل

قدم الإمام من حجه ولم يجد إلا أناسا لا يعرفون الدين إلا تحت سحنة العادة ولا العلم إلا تحت نسيج التقليد مع ما يملك طبائعهم من تأثرات تركها فيهم أهل الجبابرة. الإمام يتوقف علي هذه المشكلة الخطيرة التي لا يمكن حلها إلا بعد حين وإلا بعد تعب شديد ؛ الإمام يفكر في ذالك ويرى أن هذا كله لا يمكن دون نصرة وصحبة .من أين يجد الأصحاب ؟ إنه إذا دعا الناس إلى الله عز وجل لا يجيب إلى دعوته إلا وزراء الجبابرة الذين تفرق جمعهم وفني ملكهم بدخول القواة المستعمرة في البلاد، ولم يبق لهم إلا إجابة أول داع يدعو وإذا أجابوه لا يقوى على مخالفة أهوائهم ولا على رد طغيانهم فيصير دينه كله سحنة من العادة ونتيجة من التقليد ... كيف يفعل؟ وأي نظام يختار؟ هذه الأفكار لا تترك الإمام يتسرع إلى تحقيق أي مشروع. فأخذ يغالب النفس ويدافع عن الرغبة إلا أنه قبل كل شي يجب أن يصل إلى أخواله كعادة كل قادم من الأراضي المقدسة وإلى أعمامه ليسرهم بشيء من الهدايا وليتبركوا به.

قضى معهم حاجة الأنس بعد الوحشة وحاجة المتعة بعد الاشتياق وقضوا معه ما قضى معهم من ذالك ؛ وتلك الأفكار لم يزل تقتحمه وتمنعه من النوم والراحة. فعزم على مغادرة الأهل مرة أخرى لملاقاة زميله الأستاذ "بل أنجاي" في "وق" لكنه يرى قلة الناس وضيق المكان هناك من العوائق. فارتحل مع بعض كبرائها وعلى رأسهم زميله المذكور وابن عمه الحاج محمد ابن آمنة فطلبوا مزرعًا في "كر باس...

هكذا أهل العفاف والمروءة يهتمون أول كل شيء بالعمل لكي لا يكونوا كلا على الناس ؛ ولم يمكث في "كر باس" إلا مدة قصيرة فانصرف إلى جزيرة "قديس لويس" لشئون شخصية ومكث فيها سنة كاملة بحث أثناءها عن كثير مما يتعلق بالحضارة ودرس فيها أوهام المدينة وحقائقها وخيرها وشرها وعرف شيئًا من الإحصائية والاقتصادية واكتشف عن أفكار الحكومة وقضاياها واجتهد في كل ما تدعو إليه الحياة المدينة. وكان

مع ذالك معرضا عن زخارف الحضارة وطبائع أهلها التي أكثرها تعلق وعجـــب وريـــاء. وكثير من أهل الجزيرة حينئذ لا يحترمون الغرباء من الأشياخ ولا يقدرونهم تقديرا عـــادلا لشيء من نخوة تتحرك في نفوسهم وشيء من عداوة تدب وتسري في قلـــوبهم. وكـــانوا يظنون أن من لم يكن من الموريتانيين فإنسان لا قيمة له ولو عالمًا ولو عاملا ولو مخلصاً...

ولذالك أخذ الإمام يلقي منهم ما يلقى من الفتنة كأنه أتى بدين جديد يكرههم على اعتناقهم وهو ما أكرههم على شيء بل أقام على أمره متوثقا بالله ومعتمدا على الحـــق لا يكلفهم شيئا ولا يسألهم عن شيء ، بالغوا بالنيل منه والسعي بالنميمة بينه وبين الحكومة وهو لا يبالي بذالك ولا يلتفت إلى شيء مما يفعلون حيث يقول: "آذوني وأنا على الحـــق وأبغضوني وأنا على الحق !" وحيث يقول للإخوان الذين يعتقدون فيه اعتقادًا حسنا: "لا تدخل هذه الهفوات في قلوبكم شيئًا. إذا سمعتم أحدا يذمني أو يطلق علي من القبائح مـــا شاء فلتقرءوا لي دعاء الخير وخلوا بينه وبين سبيله، فإن الفتنة لا توجب إلا الفتنة وإن من حسن الأخلاق احتمال أذى الأخلاق !".

أبى اللئام إلا وشايته إلى الحكومة لكي لا يكون لشأنه أي رفعة ولكيلا يمحو ذكره ذكر من كان من أئمة البلاد فكأنهم حينئذ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله مـــتم نوره ولو كره المشركون.

طالبته الحكومة بالحضور مرات متعددة تسأله عن حاله وعن رغبته فأجاب بأنـــه لا يحب إلا نشر الدين الإسلامي ونصب كرسي التدريس وبناء مساجد يذكر فيها اســـم الله كثيرا وتحصيل مزارع يعمل فيها هو وأصحابه. ولم تزل الحكومـــة تبعـــث إليـــه رجـــالا يستخبرون أمره ويستقصون في ذالك أياماً بل شهورا بل أعواما ولكنهم لا يرون فيـــه إلا حب الخير والدين وكان الضعفاء من الطلبة يفرون منه خشية أن يصيبهم ما أصابه مـــن الحكومة حيث كانوا يحكمون على إخراجه وطرده يوجب إخراجهم ففارقوه وذهبـــوا إلى حيث سببهم سالمين بأنفسهم وناجين بسلامهم .ولم ينته ذلك إلا إلى هذا الخير الكثير الذي

يعم البلاد ويعم جميع المسلمين إذ ساعفه القدر على جعل الأرض كلها أمنا له ولأصحابه يبني من المساجد ما يبني وينشأ من المدارس (ما ينشأ) ﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٢٨) الأعراف.

وإذا قلت لكم أنه كان عند ما يؤدى الفرض ويقرأ الوظيفة لا يأمن على نفسه لكثرة ما يضره بعض الناس لا تصدقونني . وكانوا يمنعونه من الصلاة وقراءة الوظيفة في مسجدهم .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا ؟ ﴾ (١١٤) البقرة

إلا أن من أهل الصلاح من كان يدافع عنه ويساعده على هذا العمل الشاق كالسيد الفاضل المحترم ابن مقداد ومن تبعه في ذلك جزاه الله خيرا.

وبعد ذلك قام إلى مزرعه مرة ثانية وأغرق فيه أياما ملكه أثناءها كل أصناف الشك والتردد ثم جنح عن ذالك المحل وذهب إلى "جارد" مع من ذهب معه من الأصحاب الذين كانوا يشعرون بما يرغبهم في مصاحبة هذا الرجل الكريم. هناك قضى معهم سبعة أعوام يعمل ويدرس نهاره ويغرق ليله في عبادة الله تعالى!

مرت بهم على هذه الحالة الأعوام السبعة وهو لا تزعزهم الحوادث ولا يلعب بهم بالرجال من بوائق الدهر حتى كان كل واحد من أصحابه يظن أن سعادته الحالية والمثالية لا تتعلق إلا بمشيئة الإمام وأن الخير كله لا يتصدر إلا من كفه فصاروا يغشون الأخطار ويقتحمون الأهوال وهم لا يجزعون.

ولماذا لا يجزعون؟ وذالك لأن قوة الإيمان تتغلب على المادة وعلى كل ما ينسب إليها وأن حقيقة التوثق بمثل هذه القوة تنفي الفزع والجزع وتمكن الإنسان من قضاء أيامه في جو من الهدوء والسكينة وفي جو من الثقة بالله تعالى! ولكن في ذالك خطرا عظيما آخر، وهو أن الإفريقيين لا تبلغ بهم المحبة هذا المبلغ إلا وتدعوهم إلى عبادة المحبوب وإنزاله

منْزلة ذي العزة والجبروت. وكذالك يأكل أحدهم النار ببركة الشيخ وهـو لا يحترق ويسقط في البئر وهو لا يتضرر بشيء من ذالك.

فلما تيقظ الأمام إلى مصير ما يختبره بعض أصحابه من هـذا الأمـر فكـر في أن الرجوع إلى التربية الاصطلاحية فشيء لا يمكن وأن فتح بابها يضر أكثر ممـا ينفـع وأن التربية بالهمة هي التي أمر بها الرسول ﷺ لما وصف يوم القيامة لأصحابه فبـالغ وأشـبع الكلام في الإنذار فرقّ الناس وبكوا واجتمع عشرة من الصحابة رضي الله عنهم في بيـت عثمان بن مظعون وهم أبو بكر وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وأبو ذر الغفاري وسالم مولى أبي حذيفة والمقداد بن الأسود وسلمان الفارسي ومعقل ابـن مقر وعثمان بن مظعون رضي الله عنهم وتشاورا واتفقوا على أن يترهبوا ويلبسوا المسوح ويرفضوا الدنيا ويجبوا مذاكيرهم ويصوموا الدهر ويقوموا الليل ولا يناموا على الفـراش ولا يأكلون اللحم والودك ولا يقربون النساء والطيب ويسيحوا في الأرض فبلغ ذالـك رسول الله ﷺ فقال: إنني لم أؤمر بذالك ؛ ثم قال: إن لأنفسكم عليكم حقـا، فصـوموا وافطروا وقوموا وناموا ؛ فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحـم والدسـم وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني...

ثم جمع الناس وخطبهم وقال: "ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا، أما إني لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانًا، فإنه ليس في ديني ترك اللحم والنساء ولا اتخاذ الصوامع وإن سياحة أمتي الصوم ورهبانيتهم الجهاد. أعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وحجوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصـوموا رمضـان واستقيموا يستقم لكم فإنما هلك من كان قبلكم إلا بالتشديد شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فأولئك بقاياهم في الدرايات والصوامع.

تواوون عاصمة الإسلام والتجانية في السنغال

تواوون ،مدينة بلا شمس! كن معي في سيارة من شبه جزيرة الـرأس الأخضـر إلي جزيرة "قديس لو يس" فوق رصيفة ممهدة لا يعوقنا عن السير عليها شيء ، واترك السائق جهده مهما أمكن وأمعن النظر فيما تمر نه من المدائن والبساتين واعدد الأميال واحدا بعد واحدا وإذا بلغت إلى الرابع والتسعين أنزل زجاجة الكوة وانظر هل ترى إلا مدينة بـلا شمس! أشجار ملتفة تحيط بك وتظل عليك بأغصانها كأنك تعيش في عالم آخر غير هـذا العالم ، وهواء بادر يغشاك في كل جهة ويروح جلدك بل تنظف أعماق كبدك ويـزودك بانتعاش غريب تشعر به في كل عضو من أعضائك ؛ وطقس هاديء لا توافيه الطبيعة إلا بالخير ؛ وسكان مخلصون لا يعرفون من الحياة أكثر من الذهاب إلي الـزارع ومشـاركة إخوانهم فيما تدعو إليه وظائف الدين...

فهناك يقول لنا الشاعر العلوي ابن ففا:

خليلـي عوجـا وانـزلا بتـواوون   تـواوون فيهـا الـيمن للمتيـامن
فمـا طـار فيهـا طـائر متشـائم   ولكنـها ذات الطيـور الميـامن
جـزى الله سـلفنا بلغتنـا لأرضـها   أتم جـزاء مـن جـزاء السـفائن
فلم يـك قـبلا في تـواوون مـترلي   ولاهي مـن أرضـي ولا مـن مـواطني
ولكنـها صـارت مدينـة مالـك   ومالـك إلا كـريم المـدائن

فنجيبه بقولنا:

نزلنـا نـزولا لا رجـوع بعـده   بظلك يـا خـير القـرى والمـدائن
وفيك وجدنا مـا اشـتهته نفوسـنا   وفيك وجـدنا خـير مـا المـواطن
توطنـك الفـرد الـذي عمـم الـورى   بآلائـه تعمـيم أجـود هـاتن
وحفـت بمـأواك المبـارك خشـعًا   ملائكـة الـرحمن حفـظ الأمـاكن

وزانك من فضل الإمام وفيضه مجالس علم أنست بالخزائن
غذاؤك ذكر الله جل جلاله وفي ذكره فوز لضيف وقاطن
أتى فقراء المنهجين وغيرهم بملء قطارات وملء السفائن
يريدون تقديم الأعنة للذي يقودهم لله لا للزبائن

فلما لم يطلب للإمام قلب بقضاء الحياة معهم إلا إذا أعطوا للإنسانية والمجتمع ما يقتضيان منهم قام معهم إلى "تواوون" لأنها مدينة صغيرة لا يخلوا فيها الإنسان من الخدمة كما لا يخلو فيها من أداء واجبه نحو الإنسانية والمجتمع فأخذت طبائع الأصحاب تتحضر شيئًا فشيئا وأخذوا يربون أنفسهم بالهمة والحال على وفق ما أرضاه الزمان...هناك نشأت حياة جديدة أعادت عليهم سكينتهم واطمئنانهم ثلاثا وثلاثين سنة وأقامت عليهم كل خير وكل بركة؛ وهناك ارتفع ذكره وشاع صيته في الأقطار، وكانت سمعته الحسنة تشوق الناس إلى ملاقاته وتفويض الأمور إليه. وفي ذالك الوقت بنى من المساكن ما اتسع له ولأصحابه وبنى مسجدا يؤدون فيه الفرائض الخمس كما يجتمعون فيه لذكر الله ولذكر مصطفاه ﷺ. ولقطع كل ما يفضي إلى الحديث الدنيوي أوجب على نفسه التدريس في نهاره كله إلا في أوقات الصلاة وقراءة الأوراد؛ وكان كثيرا ما يكره الخوض فيما لا يعنيه بل كان لا يحب أن يذكر في مجلسه ما لا يتعلق بالعلم والدين وكان ذا هيبة ووقار يحترم كل فرد ويحترمه كل فرد، يعامل الطلبة أحسن المعاملة ويباحثهم في أمور شتى، بل كان لا يرى نفسه أثناء تدريسه إلا كبعض الطلبة لا يضيق عليهم ولا يحرمهم حق الإضاحة إذا كلموه أو ألقوا إليه سؤالا ما. وكان كثيرا ما يقول: "جعلت هذه المدرسة محلا أُعَلِّمُ وَأَتَعَلَّمُ فيها". وقد ذكر لي رفيقه المحبوب الأستاذ "علي كي" أنه ربما رآه يطارح بعض الطلبة مطارحة حسنة كأنما يطارح بعض زملائه!.

أوهام وحقائق:

ومن العسير على أئمة هذه البلاد أن ينظروا إلى الأشياء بعين الحقيقة لا بعين الوهم... إنما هم يرون بركة العلم في تعدد الطلبة ويرى الإمام هو أن بركة العلم لا توجد إلا في العمل؛ ويرى الأئمة أيضًا أن الغرض من النكاح هو النسل وهو لا يرى ذالك إنما يرى أن النكاح لم يكن إلا للتعفف والصيانة للمجتمع وأن النسل زيادة على الحاجة كما أن تعدد الطلبة زيادة على الغرض. أي إمام يقوي على هذه الفكرة الحقيقية التي كانت بعيدة عن التقاليد والأوهام؟ وأي شيخ يتمكن من إلغاء ما كان يتجر به العلماء في سوق العادة؟ وكان العلماء قبل إتيان الإمام يتوقفون على هذه التقاليد والمصطلحات التي تجيز لهم ما لا يجيزه الشرع من عقد النكاح على أي وجه شاءوا دون مراعاة الحقيقة.. وكان الإمام يقول:

"وإن شبه النكاح أكثر في هذا القطر من النكاح، لأن الناس لا يراعون فيه القواعد الشرعية بل يراعون التقاليد العقيمة!"

ويقول: "إن العادة نشأت هنا وأظهرت أنيابها الحادة التي لا ينزعها إلا من لم يخف من عضها".

من العجب أنه شاور بعض الكبراء في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فأمره بالرجوع إلى وطنه لئلا يرى من الأوهام ما يحرك في نفسه طبيعة الثورة فيكون ذالك حربا بينه وبين أهل تلك البلاد، فلما وصل إلى وطنه وجده مملوءًا بالخرافات فأخذ يغالبهم في ترك كل ذالك ويأمرهم بالرجوع إلى الحق الواضح وهو لا يخاف في ذالك لومة لائم ولا ضربة ظالم حتى انقاد إليه كثير من الذين أراد الله بهم الخير ولو أبى عن الإجابة إلى دعوته بعض أهل الزيغ الذين أصروا واستكبروا استكبارا ثم لم يكن له أي مبالاة بإعراض من أعرض منهم حيث يخاطبه ضميره بقول الله عز وجل:

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ (١٤٥) البقرة

وبقوله تعالى: ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠)يس

وبقوله جل وعلى: ﴿ وَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٤١) البقرة.

ومن العجب أيضا أنه خدم كل حياته في إصابة غرضه الذي هو تمكين أمته من معرفة الحقائق الدينية وتشويقهم إلى العلم وإلى عبادة الله جل شأنه! وهو مع ذالك لم يرفع صوتًا على أحد ولم يهدد أحدًا من المسلمين... إنه لم يزل يختار في ذالك سبيل اليسر وينصح الإخوان ويواصلهم لله وحده ويقول:

"إن فتح باب الأخوة في هذا الزمان خير من فتح باب الشيخوخة".

وهذا هو النظام الذي كان يتمشى عليه لا يشدد على صغير ولا كبير ولا يظلم أحدا من الناس بل يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادل المنكرين بالتي هي أحسن ويسد باب المعاداة والتبغيض مفوضًا أمره إلى خالق السماء !.

مجالس التدريس

وما هو إلا كما قلت:

تجلى لنا من مالك نور مالك كأنهما في العلم يستبقان

قد أفنا حياة الكل نشر لطيف كأنما بالنشر يتفقان

وإلا كما قال الشاعر:

فمالكنا الماضي هنا مثل مالك هنالك في دين وعلم تصدرا

كما أن هذا النائب اليوم نجله كثاني رسول الله في الغار والقرى

إن العلماء في السنغال لم يكن لهم كبير الاهتمام بحل العويصات.

إنما هم يدرسون على حسب ما يحضر لهم من المعاني ويفرضون على الطلبة عدم مخالفتهم وعدم الإلتفات إلى غيرهم من العلماء ولكن هذا الإمام لم يكن شأنه كذالك؛ كان يترك الطلبة في حرية كاملة واستقلال تام ويدرسهم بعناء شديد وتتبع عميق؛ يفسر لهم الألفاظ ويشرح لهم المعاني إلى حد لا يبقى معه شك.

كان يطلب من الكتب ما يعتمد عليه عندما يدرس وينفق على ذالك بمال طائل ويقرع في ارتياده الأقطار. وما يشهد على ذالك ما في مكاتبه من الكتب الثمينة التي تركها للمسلمين.

كان يرسل الإخوان " الموريتانيين" إلى الصحارى ليطلبوا له كل ما عز وغلا من الكتب.

وكان ينفق على أوراقين بما لا ينفق به المخازن من الدراهم. وحسبك في ذالك ما ذكر من أنه مكث ثلاثًا وثلاثين سنة وهو لم يفارق مجلسه التدريسي، كان يلقي على الطلبة دروسهم ويملي على الكتاب ما ينبثق في صدره من الحكم وينبه الإخوان ويجيب أسئلة

السائلين كل ذالك في مجلس واحد مع ما كان يسمح به لأرباب الشكوى من الإصاخة إليهم كما يقضي لهم ما استطاع من الحوائج.

فلأجل هذه الهمة ولأجل هذه المحبة في العلم بل ولأجل هذا التتبع في آثار الأئمة تيسر له دون غيره من علماء الوقت ما تيسر له من رد كل فرع إلى أصله ووضع كل حكم موضعه من دون إخلال في القضية وتلبيس في سوق الروايات. ويدل على ذالك ما في تآليفه من المسائل التي كان الأشياخ والأئمة يناقشونه فيها، ومن جملتها مسألة البسملة التي يقول فيها في كتابه: "كفاية الراغبين إلى حضرة رب العالمين" الفصل الخامس في اختلاف الأئمة في البسملة وذالك في الفريضة والنافلة...

والإمام مالك رضي الله عنه لا يأتي بها لا سرًّا ولا جهرًا، وسيدنا أبو حنيفة ومن تبعه يأتي بها سرا في الجهرية والسرية، وسيدنا الشافعي ومن تبعه يأتي بها جهرا في الجهرية وسرا في السرية ولا خلاف بينهم في جوازها في النافلة.

وقال سيدنا "النسفي" في تفسيره: اتفق قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤهم على أن التسمية ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها من السور وإنما كتبت للفصل والتبرك للابتداء بها وهو مذهب أبي حنيفة ومن تبعه رحمهم الله ولذالك لا يجهر بها عندهم في الصلاة ؛ وقراء مكة والكوفة على أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة وعليه الشافعي وأصحابه رحمهم الله ولذالك يجهرون بها في الصلاة .. إلى آخر القول. ولكل فرقة منهم ما يستدلون به في ذالك التفسير ولما كان شيخنا ووسيلتنا إلى ربنا أحمد بن محمد التجاني أحله الله دار التهاني مالكي المذهب وخالف مالكا وأصحابه في البسملة ويأتي بها كالشافعية أعترض علينا المعترضون الذين يظنون أن ذالك يخرجنا من المذهب المالكي بل يظنون أن شيخنا خاص بذالك ليس معه من المالكية لعلهم لم يبلغهم من مذهب الإمام مالك ما يتعلق بالبسملة أو لم يبلغهم جواز الانتقال من المذهب أو من بعض مسائله أو لم يبلغهم أن كبار العلماء العارفين بالله لا يتقيدون بأي مذهب ... وقد جاء أن العلماء ورثة الأنبياء

فوراثتهم أصحاب الأنبياء من باب أحرى؛ ولهذا كان اختلافهم في الأصل رحمة للناس ، ولكن دخل التعصب والحمية في الإسلام وكان كل واحد يعتقد ما يعتقد دون غيره صارت الرحمة فتنة.."انظر بقية الكلام في "كفاية الراغبين فيما يهدى إلي حضرة رب العالمين" .ومن تلك المسائل مسألة رفع اليدين في غير تكبير الإحرام ومسألة القبض .قد قال فيها بعد نقل كلام الأئمة .

وإنما ذكرت هاتين المسألتين لتنبيه المنازعين فيهما ليعلموا أن الرافعين في غير تكبيرة الإحرام والواضعين اليمنى على اليسرى على هدى وصواب، ومخالفوهم كذالك. وإني والحمد لله لما علمت أن عدم الرفع عند غير تكبيرة الإحرام وإرسال اليدين روايتان عن ابن القاسم عن مالك رضي الله تعالى عنهما وقد صحبهما عمل أكثر أصحابنا تمسكت بهما تأدبا مع الأسلاف لئلا يقع النزاع بين المسلمين حيث أن التغيير لا يكون إلا في المنكر لا في المعروف سيما معروف عمل به المعروفون.. إلى آخر القول..."

وفيها مسألة ثبوت الصوم بالسلك.. قال ذالك بعد الاستدلال بكلام أهل المذهب: "إن قلت أن السلك من صناعة المنجمين، قلنا إن المعتبر هو الضارب إن كان مسلمًا معروفاً عادلا؛ لأن قولهم "وإن نقل" عام.

وكل ما جر به رجال لوقت واتفقوا على صحته فلا ينكره إلا الجاهل، ولو ترك هذا الدين كما كان في حياته ﷺ من دون إحداث شيء ولم يصل إلينا.

وليكن في كريم علمك أنما جاء في الحديث من أن كل بدعة ضلالة فذالك من باب الكل لا من باب الكلية لخروج البدع المستحسنة. ألا ترى أن هذا الخط الذي نتداوله اليوم بيننا بدعة وكذالك المطبعة وغير ذالك مما يستعان به في الدين. وقد قال رسول الله ﷺ: " من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها."

وفي هذا إشارة إلى أن الأئمة في مجتمعنا السنغالي لا يفرقون بين التطوير والتغيير ولذالك يقول لهم الإمام إن التغيير لا يكون إلا في المنكر وأن البدعة إذا كانت مستحسنة فهي من باب التطوير لا من باب التغيير ولعلك ترى أن هذه الفكرة تخالف بكثير الفكرة التي تجعل هؤلاء الأئمة يعترضون على كل شيء حتى على تأسيس الجمعيات وعلى التدريس في المدارس التي توجد فيها الموائد والمقاعد واللوحات المعلقة بالحيطان. وكان التدريس عنهم كمرادف للجلوس على الجليدات وإلقاء كلمات معقدة لا يفهم منها المدرس ولا الطالب إلا بعض ألغاز الشيطان الرجيم... وقد بلغت هذه الفكرة بهؤلاء الأئمة إلى أن الدين كله تنازع وتباغض، بل بلغت بهم الرجيعة إلى حد لم يكن ليرضى به الإسلام في هذا القرن الذرى.. دراهم معدودة في الجيب وقبضة وزن الأرز في القصعة وكأس سخينة من الشاي أمام السبحة وعدوان ثم عدوان ثم عدوان!! وهم مع ذالك لا ينطقون إلا بالكتاب والسنة.

وأين الكتاب والسنة من هذه القلوب القاسية؟

وأين الكتاب والسنة من هذا الحقد الذي يملأ جو المساجد والزوايا؟

وأين الكتاب والسنة من هذا التساقط الذي يجعل المسلم البسيط أولى بالاحترام ممن يدعى الإمامة في السنغال؟؟

بعض النظريات

وقد سمعت من السيد الخليفة أن بعض الكبراء أخبره بأن هذه البلاد التي نشر فيها الإمام الدين الإسلامي ما نشره أحد إلا أفسد عليه أهلها شيئًا كثيرًا وذالك لأن من عادتهم ألا يتتبعوا إماما في مراده إلا بعد إتباعه إياهم في مرادهم من تحليل ما زاد على أربع حرائر في النكاح ومن التلاعب بالدين ومن تمكينهم من عبادة الهوى وغير ذالك.

ومن عادتهم أنهم لا يرون أحدا ممن ينتسبون إلى الدين والعلم إلا قدموا إليه من البنات والهدايا ما لا يعد ولا يحصى، فإن قبل ذالك هلاك ما بعده نجاة لأنه من الحرام الذي لا يختلف فيه العلماء الزيادة على أربع حرائر كما ذكر الإمام نفسه في كتابه (كفاية الراغبين) وقال:

"وإن ما ذكره السيد داود الظاهري في قوله تعالى: "مثنى وثلاث ورباع" ضلال وإضلال، حيث أن الفقهاء كلهم يخالفونه في ذالك".

فلينظر القارئ ذالك الكتاب...

وإن من عادتهم أيضا أنهم يرغبون أئمتهم في السؤال ويهدون لهم سبيل التكفف إلا أن الإمام لما رآهم يتعرضون لذالك قال: "إن فتح هذا الباب يحمل المريد والأبناء على التجول في البلاد ويجعلهم يفكرون في أن أموال الناس كلها حلال لهم وذالك يخالف ما أمرنا به رسول الله ﷺ من الاحتراف وعدم التوكل على ما في أيدي الإخوان ويخالف أيضًا ما ذكر القطب الكبير مولانا أحمد بن محمد التجاني من أن السؤال والتشديد على الناس يقطع المريد عن الوصول إلى الله عز وجل.

وكما قال أيضًا في "الروح والأرواح" فعلى من ابتلي بالمشيخة النظر في أحوال نفسه فإن علن منها الاتصاف بالعلم والعمل كما بينا دعا من أحبه من المسلمين ونصح له وإن لم يكن عالما ولا عاملا وجب عليه العلم والعمل وترك المشيخة ليسلم من وبالها يوم القيامة فإن الجاهل والفاسق بعيدان من الله تعالى فكيف يقربان غيرهما إليه؟ ثم قال وإذا كان

الأمر كذالك فما بالك في القرن الذي نحن فيه وهو الرابع عشر الذي فيه ينكح بعض أهل الإسلام أكثر من أربع فيما بلغنا من بعض أهل القطر (السنغالي) وذالك حرام كمـــا في البخاري قال ابن عباس: ما زاد على أربع فهو حرام كأمه وابنته وأخته.

وقال تعالى: "مثنى وثلاث ورباع" وقال الخازن في تفسيره: والواو في هذا الفصل بمعنى أو؛ وقال البغوي أيضا: الواو بمعنى أو للتخيير إلى أن قال:هذا بإجماع أن أحداً من الأمة لا يجوز له أن يزيد على أربع نسوة، وكانت الزيادة من خصائص النبي ﷺ لا مشاركة لأحد من الأمة في ذالك.

الإمام يعرض هنا بعض النظريات المتعلقة بمشكلة تعدد الزوجات ويقول: إن الشريعة المحمدية تتوقف على أربع حرائر لكل مسلم حر توفرت له الإمكانيـــات وتكاملـــت لـــه الأخلاقيات وذالك ما دامت المرأة عضوا من أعضاء الأسرة لا إذا كانت إلَها للأسرة كما في الحضارة الغربية. وفي هذه الحضارة لا يمكن لأي رجل أن يتزوج بأكثر من واحدة ولو كانت الإمكانيات متوفرة ولو كانت الأخلاق متكاملة حيث أن المرأة في الغرب صـــارت إلَها معبودًا، الإله الذي يفرض على الرجل ما شاء.

ولعلك يخيل إليك عالَم يحيا فيه آلِهة متعددون كل واحد منهم يلقي على عاتق الرجل كل أصناف التكاليف. ولعلك ترى كل هذه الحوادث التي تصيح بها الإذاعات وتأتي بهـــا الجرائد هذه الحوادث التي تعود إلى تقلبات هذا الإله الذي قد فارق عرشه ونـــزل مـــع ملائكته في الشروع وجعل المطاعم والملاهي موضع تصرفات وتطلباته. وجدير الغربية أن تبدل كلمة "الحرية للمرأة" بكلمة (الألوهية للمرأة)...وكانت الحكماء تقول: إن البيت للمرأة خير وللرجل ضير، والآن صار البيت وكأنه سجن للمرأة تفر منه فرار الشاة مـــن الذئب ...وقال في آخر هذا الكلام : "ومما عمت به البلوى أيضا في هذا الزمان الرشـــوة التي سموها بالهدية وهي لم تكن إلا رشوة . وسئل سيدنا ووسيلتنا إلي ربنا أحمد بن محمـــد التجاني عن سبب عدم قبول الهداية مع أن النبي صلي الله عليه وسلم كان يقبلها فقال:

كانت الهدية هدية في زمن الرسول صلي الله عليه وسلم واليوم صار رشوة فإن الناس إذ أهدى أحدهم شيئا لغيره أوقضى له حاجة لا يمكث إلا قليلا ثم يرجع إليه في طلب بعض أغراضه ولا يهدى في الغالب إلا لذي جاه ديني أو دنيوي ومن لم يكن له جاه فلا يهدون له شيئا أبدا كما هو مشاهد من حال الناس في هذا الزمان ولا يعطون شيئا بقصد المحبة والمودة والإخاء في الدين وإنما يعطون لتحصيل أغراض فاسدة.

وقال سيدنا كنون في حاشية علي الرهوني: وفي البخاري عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: كانت الهدية في زمن الرسول صلي الله عليه وسلم هدية واليوم رشوة. وقال: كان عمر رضي الله عنه لا يقبل هدية العمال وإذا قبلها وضعها في بيت المال، فقيل له: إن رسول الله صلي الله عليه وسلم كان يقبل الهدية فقال :إنها كانت هدية وهي اليوم رشوة .

قال الزاهر بن عمران :

توق وحاذر من قبول هدية ... وإن جاءنا فيه حديث مرغب

وكانت هدايا في الأوائل قبلنا ... تؤلف فينا بينهم وتحبب

فعادت بلايا يسرع المن بعدها ... تفرق فيما بيننا وتجنب

إلى أن قال معتمدا على ما ذكره السيد العربي ابن السايح: فكلما أتى من الأخ لأخيه علي وجه الهدية والمواصلة لله من غير طمع ولا استشراف نفس فضلا عن السؤال فهو لا بأس به شريعة وطريقة".

طلب الهداية أصل كل داء في هذه البلاد حيث أنه يدخل في قلوب المريدين من الإعراض والجفاء ما يدخله فيها.

ولو سئل الناس التراب لأوشكوا ... إذا قيل هاتوا أن يَملوا فيمنعوا

كما أنه يدخل الشحناء في قلوب المتشيخين الذين يتخذون كل طالب هدية عـــدوًا فيحملهم ذالك على إنكار ما قال الله عز وجل من أنه هو الرزاق ذو القوة المتين.

حرك القدم أيها القارئ في هذه الأنحاء وتجول شيئًا قليلا لترى ما هو مصير هذا الأمر فرق متعددة من المسلمين يذم بعضهم بعضا وذالك كله لدرهم واحد يختطفه فيكون ذالك فتنة عظيمة تغرس في النفوس كل أصناف الحقد والضغن ثم يحنوها بعد حربًــا مكفهـــرة يهلك فيها كل إنسان. ولذالك كان الإمام يكره أن يعود هذا الإثم كله إليه إذا أعطـــاهم درس الطلب أو سن لهم سنة الجولان ولكن جهل البعض وطمع البعض الآخر رغبهم فيما كان يرهبهم فيه الإمام ففعلوا ما شاءوا من السؤال والطلب وغير ذالك، عفــا الله عمــا سلف!

الأكل بالدين

هل هناك من الأئمة من يعرف ما هو الأكل بالدين؟

وإذا كان من يعرفه فهل هناك منهم من يجتنبه، إن الإمام يتألم على ما يرى من ذالــك ويتألم شديد التألم على أن الذين يأكلون بالدين لا يتخذون ذالك إلا حظا كبيرا مــن الله تعالى ولم يكن إلا حظا من الشيطان الرجيم... ولذالك يقول:

"واعلموا لا خيب الله رجاءنا ورجاءكم وقهر الله أعداءكم أن من الأمراض الــتي لا طبيب لها الأكل بالدين الذي عمت به البلوى. وقال سيدنا الأخضــري. عاطفــا علــى المحرمات:

الأكل بالشفاعة أو بالدين. قال الشارح عند ذالك المحل في عمدة البيان:

قوله بالدين كمن أظهر في نفسه التصوف فيعطى المال من أجــل ذالــك إلى آخــر القول.."

هذا هو الحق فإن أكلها بالدف والمزمار خير لأنه يعود إلى مصلحة النفس والهوى... أما أكلها بالدين فمضرة تصيب الإسلام كله. وفي مثل هذا المحل كان الإمام يحب أن ينشد قول ابن مبارك:

أرى أناسا بأدنى الدين قد قنعوا ولا أراهم رضوا في العيش بالدون

فاستغن بالله عن دنيا الملوك كما اس تغنى الملوك بدنياهم عن الدين

الاتجار بأسماء الله تعالى:

كان أكثر المسلمين في السنغال يظنون أن حقيقة الدين لا توجد إلا وراء ضغط السبحة. ترى طائفة منهم لا يشغلهم إلا إغراق حياتهم في قراءة الأوراد الغالية والأذكار المصطنعة التي يغرون بها العقول ويأخذون بها من الأموال الطائلة ما يقومون به إعوجاج المعيشة. إنهم يقرءون للنساء والشبان من الأذكار ما لا يقرءونه إلا لغرض دنيوي ويشترون بعهد الله وآياته ثمنا قليلا تراهم يأولون للناس أحلامهم ويعبرون لهم عما تخفي صدورهم بكلمات مبهمة ويدعون مع ذالك علم الغيب ولا يعلم الغيب إلا الله. وكان هذا يغري النساء ذوات الزواج بأخذ مال أزواجهم والذهاب به إلى أرباب الأذكار الذين يملكونهن قلوب الرجال ويكشفون لهن أسرارهم ويرضون لهن نفوسهم إلى غير ذالك من الخدائع ويزهدون الشبان في الجد والعمل حيث يعطونهم من المعاوذ ما يزعمون أنه يغنيهم عن كل شيء ويقول لهم إن من علق هذا على عنقه أو جعل هذا في جيبه أو وضع هذا في خريطته فإنه يورث الغنى والجاه والملك إلى غير ذالك مما لا يقدر على إعطائه بعد الله إلا العمل وينسون حينئذ أنه تعالى يخاطبهم بقوله ﴿ قُلْ اللَّهُمَّ مَالكَ الْمُلْك تُؤْتي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ ممَّنْ تَشَاءُ وَتُعزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذلُّ مَنْ تَشَاءُ بيَدكَ الْخَيْرُ إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾ (٢٦) آل عمران

ولما كان هذا شأنهم والإمام يعرف ما في جميع ذالك من فساد الدين قام أشد القيام لتغيير هذا المنكر والنهي عن بيع أسماء الله تعالى بالمال، وكتب في ذالك هذه الكلمة:

"ومما يشاكل ما قدمنا ما أحدثه بعض من ينتسبون لعلم الأسرار وهم يعتقدون أنها بالسين المهملة "الأسرار" فإذا هي بالمعجمة "الأشرار" لما أحدثوا من بيع أسماء الله تبارك وتعالى بالمال وكانت في الأصل لا تباع إلا بترك حظوظ النفس ولا يؤذون فيها إلا لمن خالف تلك الحظوظ وخرج عنها بالكلية و إلا فعلى الملقن وعيد شديد من أهلها – راجع جواهر المعاني– ثم قال: "وانظر بعيني بصرك وبصيرتك وفرق بين زمانين كيلا يلتبس عليك الحال فتنبه بارك الله فيك! ولا تغتر بكلام المغرورين فإن سلم الذهب لا يرقى عليه لتناول القذر. قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : "الدنيا جيفة قذرة طالبها كالكلب فافهم وإن كان ذكر اسم الله لغير وجه الله معدودا من الشرك فما تقول في بيع الاسم بالمال ليستعمله المشتري في حظوظ نفسه فالبالغ يدخل العام على غرض فاسد والله الموافق للصواب!

يقول لك البائع مثلا: إن ذكرت هذا الاسم تنال كذا وكذا من الجاه والمال والقبول.. فقل له : يا أيها الأخ ما المانع من الحصول علي ما ذكرت حتى تبيعه وأنت السابق علي ذكره، ثم قال: فتب إلي الله إن الله يحب التوابين فإن أردت أن يفتح الله لك الباب وييسر كل عسير فلازم التقوى في جميع أمورك قال تعالي !: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(٢)وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ الطلاق

وأيضا :﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ (٤) الطلاق. إلي غير ذالك.

ومن أراد الفتح التام والسر الحقيقي فليمتثل أوامر الله ويجتنب نواهيه والله أعلم.

ثم قال: إن شرك الأغراض عند أهل الشريعة هو فعل أعمال البر بغير وجه الله وأما إن كان لوجه الله مع رجاء قضاء غرض ما فلا حرج بخلاف العارفين بالله فالإخلاص عندهم أن يكون العمل حبا لله لا لطلب ولا رجاء كما قال:

أحبك لا لي بل لأنك أهله وما لي في شيء سواك المطامع

نعم فإنه لم يكن شيء أضر على الرجال من مثل الخدائع التي تقعدهم عن العمل وتورثهم العجز والكسل وتمنعهم من بذل الهمة في طلب ما يعني من الدين والحياة وتنسيهم قول الشاعر المجد:

وكن رجلا نفسه في الثرى وهامة في الثريا همته..

السجود على أيدي الأئمة:

قتل الإنسان ما أكفره يسجد على يد إنسان مثله وهو يعرف أن السجود بما لا يعبد به إلا خالق الخلق؟ يا لله! إنسان يتخذ إمامه إلهًا وهذا الإمام لا ينهاه عن ذالك؟ يا للعجب!

واعلم بأن أصل ذي الآفات حب الرياسة وطرح الآتي

فهذا من الكبر ولا يخفى ما في الكبر من العنت. وكان رسول الله ﷺ يقول: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من الكبر! ما قتل ابن آدم إلا الكبر..

يشارك ربه في ملكه في عزه ويشاركه فيما يعبد به من الركوع والسجود وهو لا يشاركه في شيء من ذالك ! أمر تخر له الجبال وتنقض السماوات والإنسان لا يعرف أو إذا عرف فهو لا يبال ! إن الإنسان لربه لكنود وإنه لظلوم جهول، ولماذا يتجرأ بعض المسلمين على ما يتجرأ عليه الأباليس؟ ولماذا يتجرءون على كل ذالك ورب العزة يقول:

﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٣٧) فصلت

ويقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ(٦)الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ(٧)فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾! (٨) الانفطار.

فلردم هذه الثلة الواسعة التي تتراءى في حائط الدين ولدفع هذه القارعة التي تكاد تهلك الأمة كتب الإمام: "ومما أحدث في قطرنا هذا من البدع القبيحة التي لم ترو عن أحد من السلف ولا من الخلف السجود على أيدي الأئمة فقد صرحت الآية الكريمة بأن السجود من خصائص الله حيث قال:

﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

ومن هذه الآية الكريمة يستفاد أن لا دليل لمن يسجد لغير الله. وفي روح البيان: كانت التحية بالسجود جائزة فيما مضى ثم نسخت بقول النبي ﷺ لسلمان الفارسي حين أراد أن يسجد له "لا ينبغي لمخلوق أن يسجد لأحد إلا لله تعالى ولو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها. فتحية هذه الأمة السلام لكن يكره الانحناء لأنه يشبه فعل اليهود" إلى آخر القول.

لقد أدى الإمام حقه وعمل بما أمرنا به رسول الله ﷺ، من أن من رأى منكرا فليغيره. غير الإمام ما رأى من المنكر وكان التغيير أمانة له ولأتباعه...غير ما غير من ذالك ولم يلتفت إلى تجبر المتجبرين الذين يدعون أن أكفهم تقوم مقام الحجر الأسود في الكعبة الشريفة وأن لهم أن يأمروا الناس بتبديل العبادات بثمن بخس دراهم معدودة...

إن في هذا التغيير لتجبرًا مع المتجبرين وإن فيه لاستنكافاً مع المستنكفين، رجل من أهل الله.. ورجال من أهل الشيطان! وعلى كل من الأول ومن الآخرين وظيفة تؤدي أمام الخلق ... فعلى الأول الدفاع عن دين الله عز وجل وعلى الآخرين تنفير الناس عن ذالك الدين وتوجيههم إلى الشيطان الرجيم فكان تجبرهم غيًا وكفرًا. وإن تعجب فعجب!

ببركة الشيطان لا ببركة الشيخ

كان من عادة أتباع الأئمة أن يردّوا كل ما حصلوا عليه من الخيرات إلى بركة الشيخ.. المال ببركة الشيخ.. الصحة ببركة الشيخ.. النوم الهائ ببركة الشيخ..الطعام الشهي ببركة الشيخ.. وهذا تارة يعود إلى شيء من البساطة وتارة إلى التأدب من الأئمة. فصادف يوما أن بعضهم أتى إلى "تواوون" لزيارة الإمام والتعارف مع الإخوان... فلما وصل وجد الإمام في جلسة التدريس والطلبة حوله كأن على رؤوسهم الطير...

درس ثم درس... وسؤال ثم سؤال...كل ذالك تحت أذن وعين من الضيف النازل، لعله يتعجب من كل هذا ولكنه أكثر تعجبًا من شيء آخر وهذا لشيء هو أنه ركب القطار من بلده إلى العاصمة ولم يأخذ أجرة السفر ولم يأته أثناء رحلته أي رقيب... ولعل ذالك ببركة الشيخ... نعم! لم يكن ذالك إلا ببركة الشيخ ولا بد من تبليغ هذا العجب إلى الإمام بل لا بد من إطلاق الثناء على بركته التي منعت شرطة القطار من القبض على الزائر المخادع... ولكن سرعان ما أجابه الإمام بقوله: "إن ذالك ببركة الشيطان لا ببركة الشيخ. فإنك سرقت ولا يخفى عليك ما في السرقة من الوعيد... ثم قال: فإن تمكنت من إخراج ثمن الأجرة وإرساله إلى عميد محطة السكك الحديدية هنا فافعل!".

والضيف الزائر يلتفت إلى اليمين وإلى اليسار لعله كان ينتظر من الإمام أن يحبذّ بهذه الحادثة أو كان يظن أن الإمام بمجرد وصول الخبر إليه يفخفخ أو ينفجر ضحكا وقهقهة كعادة كثير من الذين يدعون الإمامة؛ ولكن الجواب لم يكن إلا كما قال: "ببركة الشيطان لا ببركة الشيخ!..".

الجهاد جهاد النفس:

كان الأستاذ الكبير "مَجَخَتِكَلْ" عالم الأمة المسلمة السوداء السنغالية بل كان أديبها وشاعرها الفريد... وقد قال يمدح المجاهد الكبير الحاج عمر بن سعيد الفوتي:

نأى الجسم عن صاصم وما القلب نائيًا ولا لاميًا عنها ولا هو ساليا

فعيناي طورًا تجمدان وتارة تسحان توكافًا يبل ردائيا

ألا إن صاصم حائل دون أرضها مسير بريدي حلعد ليس وانيا

صبور على التأويب لا يشتكي الوجى لدى السنير جواب الفلا والفيفيا

حثيث نشيط لا يمل مروره كما ذأل السرحان للجنب طاريا

له طيران اليرفئي متى خطا تجز ربوة بالوثبتين فواديا

عليه امرؤ ما بان عن فيه قيله: سبيلا إلى القرم الحلاحل هاديا

إلى عمر الشيخ الملقب فاعلا من الحج لما كان للبيت آويا

فنال مناه من طواف وزورة وسعى الصفا والمرو للجمر راميا

فآب وأم المشركين مجاهدا وقد هد آطامًا لهم وصياصيا

وصعصعهم من حين باراه جيشهم وجاس الديار للحلائل سائيا

كأن يوم لاقاهم كما قال قائل: فراخ القطا لاقين أجدل بازيا

تعود إطعام النسور كلي العدا مع الهام زايلن اللحى والنواصيا

إلى آخر القصيدة

وقال أيضا يمدح القطب الكبير مولانا أحمد بن محمد التجاني:

تمادى جموح النفس في اللهو والدد وطاعتها أمر الهوى والتمرد

وفي حـــب رنـــات المـــزامير والغنـــا وزجـــر كتمثـــال الكتـــابي أجـــرد

إلى أن قال:

ومـــن لي بأســـتاذ ألـــوذ بـــورده يقـــيني يقينـــا كـــل هـــول بمـــورد
ومـــن لي بشـــيخ عـــالم ذي معـــارف طبيـــب لأدواء الفـــؤاء مســـدد
يحيل نحاسي خـــالص الـــذهب الـــذي يقلـــب بـــين النـــاس باليـــد فاليـــد
ومن لي بشـــيخ ذي الشـــريعة كلـــها بصـــير بأســـرار الحقـــائق مرتـــد
ومـــن لي بشـــيخ ذي علـــوم غزيـــرة يطهـــر أدنـــاس الرذائـــل مرشـــد
ومـــن لي بشـــيخ ذي خـــوارق جمـــة ســـراياته تهـــدي المريـــد فيهتـــد
ومـــن لي بشـــيخ لا يضـــام مريـــده يفـــرج غـــم اليـــوم أو فـــزع الغـــد
طلبـــت فجئـــت النـــاس في كـــل مـــوطن وجلت فجبـــت البيـــد مـــع كـــل فدفـــد
إلى أن أقـــروا بـــين بـــاد وحاضـــر بـــأن لم يجـــد دهـــر بهـــذا ويوجـــد
وهل يكمـــل الأوصـــاف إلا لواحـــد يكـــنى أبـــا العبـــاس نجـــل محمـــد

إلى أن قال:

فقلت بمـــرأى مـــن إلهـــي ومســـمع إلى ذاك ألقيـــت القيـــاد وقـــد قـــد
وإني بأســـتاذ الأســـاتيذ وحـــده تقيدت طـــول العمـــر كـــل التقيـــد
فصار الخراطي اليـــوم في ســـلك عهـــده ولا شـــيء إلا كـــان عنـــه تجـــردي

إلى آخر القصيدة

وقال أيضا يمدح رسول الله ﷺ:

ألوذ بطـــه ســـيد الكـــون والعـــرب وأهل الســـما والـــرض والشـــرق والغـــرب

به أرتجي تفريج همي وألتجي إليه من الخطب المروع والكأب
تخذت رسول الله يس ملجئ ومنجاي من أمر يهال به قلبي
جدير بأن يلجي إليه ويرتجي متى ناب أمر مفزع موجب الرعب
حمدت إله العرش جل جلاله على جعله إياي من أمة الحب
خبأت لنفسي أن أحب محمدًا محبة ذاوي الزهر واكفة السحب
دلائله ألف ونفل كتابه وحسبك نطق المن والريم والضب

إلى أن قال:

ولولاه لم يخرج من الحوت يونس من النار إبراهيم أو يوسف الجب
لأدرك نوحًا في السفينة جاهه وأيوب في البلوى ويعقوب في الكرب

إلى آخر القصيدة

وكان "مجختكل" مع ذالك عاقلا ليقًا يملك قلوب الجبابرة ويسيطر على علماء الوقت وعلى غيرهم من الزعماء وكان في سنته أن يذهب إلى من هو من أهل الحظ لباحث في العلم والسياسية وفي كل شيء. ولما سمع قدوم الإمام في هذا القطر اهتم بملاقاته كأنه يرى في ذالك وعدا ووعيدا ويرى فيه نجاحا وخسرانا حول سلطته. إن ظفر بالإمام فذالك الفوز العظيم وإلا فلا سبيل إلى إعادة السلطة. ولذالك يسأل عن حال الشيخ ويتعمق في ذالك كأنه يريد قبل الوصول إليه أن يتحقق بشأنه إلا أن بعض الموريتانيين ذكر له بأن الضيف القادم بحر لا ساحل له في الفنون. ولكن هذا لا يرد عزم الأدباء والحكماء المختبرين.

تحير الإمام أمام هذه المشكلة وأخذ يفكر في كل شيء وفي آخر الأمر قد عزم أن يرسل إلى الإمام بعض رفقائه ليشاوره في إيقاد نار الحرب بينه وبين الجبابرة. إن ابن سعيد

الفوتي جاهد في سبيل الله وكذالك السيد الشهيد "مَبَهْ..." فكيف لا يحرك الإمام نار الفتنة ويدعو الناس إلى دين الله عز وجل؟ فما وصل الرسول إلى الإمام إلا أجاب بأنه لا يرى في ذالك مصلحة للإسلام ولا للمسلمين؛ لأنه يعرف طبيعة الأمة ويعرف حالها وحال الوقت وما في الجهاد من تفريق جماعة المسلمين وتشتيت آراءهم وما فيه من تكوين الأعـداء في معظمهم. إنه لا يرى الجهاد شيئًا نافعًا ولا يراه إلا شيئًا فيه ضرر عظيم للعامة والخاصة.

ولذالك عدل عن ذالك النظام وقال: "الجهاد هو جهاد النفس والجهـاد بالهمـة والحال؛ ولا شك أن المسلمين سيما عوامهم إذا دعوتهم إلى الجهاد بالسيف يسبون مـن الحرائر ويأخذون من الأموال ما لا تأمرهم به الشريعة المطهرة ويرتكبون من الآثـام مـا يرجع إلى إمامهم وإلى قائد حربهم... وذالك لا يقبله العاقل ولا يفعله المؤمن".

ثم قال: "الوقت لمن لان له فوقت وإلا فمقت !" جواب كله حكمة؛ جواب كلـه إشارة إلى أن فوق العقول الحائرة عقلا راشدًا وإلى أن فوق المكائـد مكيـدة أخـرى.. ولذالك قال الرسول من عند الإمام ونطق بالحق الذي لا غبار عليه، نطق بأن لكل أمـة إمامًا وإمام هذه الأمة لا يوجد إلا في هذه الشخصية المقدسة التي أتت لأداء قضية الحـق في هذه البلاد المظلمة؛ علماء الشرق والغرب يتفقون على تقدير المفكر الهنـدي الكـبير "غاندي" فوق ما يقدرون كل مفكر آخر لنظامه السلمي وهم لا يدرون أن في هذا القطر الأسود البعيد مفكرًا دينيًا سبق إلى هذا النظام وأشار إليه قبل كل أحد إلا أنه كان محبوسًا في أمة جاهلة وفي قطر بعيد لم يكن بينه وبين العلم أي صلة.

إن أفكار الإمام يجدر بها إذا كتب أن تكتب بماء الذهب وتنشر في كل أفـق مـن آفاق الدنيا لينتفع بها المسلمون إلا أنه عاش في قوم لا يعلمون شيئًا ولا يهتمـون إلا بمـا يعود إلى هذه المصطلحات الوخيمة التي تضر الدين والحياة.

غلبة الحال:

من الناس من لا يقبلون شرف الإنسان إلا بعد الامتحان، ومنهم من لا يصوررون الإنسان إلا على صورته الحقيقة التي لا يغرهم فيها هون ولا غفلة وذالك كبعض الحكماء الموريتانيين والتكارير؛ إنهم يعرفون قدر الإنسان وينطقون بالحق حيثما دعت القضية إلى ذالك. فليسوا كهؤلاء المتغافلين الذين لا يرون في القضايا! إلا ما يرى فيها النفس والهوى ولا يقتضون منها إلا ما تقتضيه منها الحمية الجاهلية. ولذالك قدم بعض أهل الحق على السيد الكبير أبي بكر "جُنْكْ" في "بودور" وآنس حينا كان يطلب أثناءه أن يعرف شيئا من شأن الإمام.. مكث معه مدة كان يتباحث معه فيها حول هذه الأخبار والروايات التي تصدر من الإخوان ويطالبه بصورته الحقيقية.

نعم أخذ السيد أبو بكر جنك يصور له رجلا يعرف منه من الأخلاق الطاهرة والأعمال الباهرة ما لا يمكن السكوت عنه، أخذ يرسم له صورة الإمام رسمًا عجيبا لم يترك فيها سخينة ولا لونًا، فلما فرغ من ذالك قدم إليه الضيف شكرًا جزيلا وقال: "أحب بعد كل ذالك أن أتصل بالإمام وأتمتع برؤية وجهه شيئًا قليلا". فوافقه السيد أبو بكر على ذالك واختار له سبيلا آمنا يقوده إليه ثم توادعا بخير.

سلك الضيف سبيله إلى من يحب أن يعرفه معرفة العيان لا معرفة اللسان وهو يقاسي في هذا السفر ما يقاسيه الأذكياء الذين تتعبهم عقولهم أكثر مما تريحهم.

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخ الجهالة في الشقاوة ينعم

اتصل الضيف بالإمام وأقام في ظله زمنا طويلا وها هو ذا يساهم في كل عمل ويتابع هذا الرجل الخالص بنظرات خفية يقدر بها شأنه الجليل وها هو ذا يتساءل:

كيف يدرس الإمام؟

وكيف يجالس الطلبة؟

كيف يعمل؟

كيف يعظ المسلمين؟

كيف يعامل الناس؟

كيف تكون تربيته؟

فما رأى من كل ذالك ما كان ينظر وعين النقط المهملة التي يعتمد عليها عند تأسيس قضيته قال للإمام: "لقد جاءني من الخاطر أن أرجع إلى البيت..."

فأجابه الإمام بأن لا بأس.. فلأن العقل يتعب أكثر مما يريح حاول الرجل صورة أخرى تمثل إماماً آخر ينطق الناس بزعامته الدينية فذهب إليه وأغرق عنده أيامًا تمكن فيها من تصويره تصويرا ملائما ثم رجع إلى السيد الأستاذ أبي بكر جنك ليزوده بنتائج سفره الذي درس أثناءه شأن رجلين عظيمين..

فقال له السيد أبو بكر: ماذا رأيت؟

قال: رأيت رجلا غلب الحال ورجلا غلبه الحال؛ فإن الأول هضم نفسه وراض هواه وملك أمره وأزال نخوته وكبره قبل اجتماع الناس عليه – والثاني قد خالط الخلق قبل تصلب أعضائه على العبادة وقبل تغلبه على النفس والشيطان.. إن الأول ربى أهله بالهمة والحال التي هي الأصل. والثاني بالاصطلاحية التي قد اتفق علماء التربية على أنها حرام في هذه القرون الأخيرة لما يعقبها غالبا من تقديم حق الشيخ على حق الله ولما يعقبها من هتك محارم الله والغض من الإنسانية حيث أن أهلها ربما لا يأكلون إلا الحشيش ولا يلبسون إلا الجلود ولا يلتفتون إلى الإخوان ولا يكون لهم كبير الاهتمام بالشئون الاجتماعية..

وقف السيد أبو بكر أمام هذه القضية متحيرا كأنه يرى في ضيفه بشرا لا ككل بشر ويرى فيه مهبط وحي لا يخفى عليه أي شيء. إن في هذا لدرسا نافعا للمتشيخين الذين بمجرد اجتماع الأفراد عليهم يدعون الولاية والقطبانية! قال الإمام: "كل باطن لم يوافق أصل الشريعة المحمدية فهو باطل!"

الأخوة والميثاق

أمام رجل من رجال الخير

إن من الأسماء ما لا تنساه هذه البلاد، وإن من الشخصيات من لا تزال صورهم ترفرف في الجو ويتفرجها كل إنسان وذالك كمندوبنا الشهير المحترم "بليز ديان" الذي أتى بادئ أمره يبايع الإمام لا في الدين ولكن في الخدمة للوطن فلم يقبل الشيخ ولم يمتنع لما يعرفه من طبيعة السياسيين ولكنه بعد إطالة في ذالك أشار إلى أن هذا الرجل سوف يكون له شأن عظيم. ولكن هذه الإشارة لا تظهر لكل أحد لأن من عادة أهل الحق الإمساك على التكلم فيما يتعلق بالمستقبل وإذا تكلموا فيه فكلمات لا يهتدي إليها إلا العقلاء. وما مرت عل المترشح الجديد سنة كاملة إلا شاء القدر أن يكون مندوبًا رسميا للسنغال. فأتى لتقديم شكره واحتراماته إلى الإمام الذي لم يزل يدعو له بالخير فقال له الإمام بكلمة وجيزة: "مثلنا بينكم وبين الحكومة الفرنسية كمثل القائم بين الأخوة والميثاق فإنكم عند اعتبار الجنس إخواننا ورجال الحكومة عند اعتبار السلطة هم موضع الميثاق. فالأحسن أن تتخذوا هذه النيابة وسيلة لتحقيق الهدف الذي هو رفع ضمير الدولة الفرنسية عن العدوان ورفع ضمير الأمة السنغالية عن الرضى بالاستغلال. أما إذا اتخذ نموها سلطة وملكها فإنا لله وإنا إليه راجعون!.."

مكث هذا المندوب في نيابته مدة ما مكث فيها وما ضره نقصان ولا أشقاه خسران. وفي أثناء تلك المدة وقعت الحرب العالمية الكبرى بين فرنسا وألمانيا فجعلته الدولة الفرنسية على رأس البعثة التي أرسلها إلى المستعمرات لتأليب الجنود فيها. فلما وصل إلى السنغال شاور الأئمة في ذالك وطالبهم بإحضار الطلبة الذين عندهم فأحضروا منهم جما غفيرا. إلا أن الإمام لم يتمكن حينئذ من الإجابة إلى رغبتهم لما في ذالك من تشتيت أبناء المسلمين. قال له المندوب: أنشدكم الله ألا تغلبوا في هذا الأمر لأن الأئمة قدموا إلينا عددا وافرا من الطلبة ليدخلوا في الجندية وليضحوا بأرواحهم في سبيل السلام. فأجابه الإمام: "ليس من

الدين ولا من الحرية أن أبعث إليكم أبناء الإسلام دون مشاورة آبائهم الذين طلبوا مني أن أعلمهم وأرشدهم إلى الخير. فإن الأئمة الآخرين الذين يرون أن من الإحسان أن يحضروا أبناء المسلمين أمامكم قبل مشاورتهم في ذالك لا أوافقهم على هذه الفكرة ولا أقدرهم في هذه القضية تقديرا مستقيما. فإن قبلتم مني هذا وعرفتم فيه عذري. فعلى الله أجركم وجزاؤكم!"

الفستق أو الفول السوداني:

إن من المشاكل الاقتصادية التي تهم البلاد مشكلة الفستق أو الفول السوداني، ولم يزل الزعماء والمسئولون يطلبون لهذه المشكلة حلا يمكن الفلاحين من الانقطاع بزرعهم انقطاعا يوازي ما يبتهج به التجار الفرنسيون منه؛ فإن الفلاحين يجتهدون في ذالك ويطلبون من الحكومة الفرنسية بل يطلبون من المندوبين الرسميين لهم أن يبذلوا الجهد في إصلاح هذا الأمر قبل أن يبلغ السيل الزبى.

حيث لم يكن لهم من المحصولات إلا الفستق الذي من قلة ثمنه لا يستطيع أن يستوفى على قضاء الحوائج، ولكن المندوبين لا يقوون على غلبة التجار الفرنسيين الذين كانوا تحت حماية الحكومة الفرنسية.

فلإخفاء هذا الجور ولتسكين ثورة الفلاحين، خطر في بال المحافظ العام أن يقابل الإمام ويسأله ما رأيه في ذالك بأمره وتحذير المسلمين الذين يخاف أن يحملهم الغيب علي شيء يخل بسياستهم .قال المحافظ العام للإمام :(إن التجار الفرنسيين الذين يشترون هنا الفستق قد وجدوا من المال ما يكفيهم غم الأرب .ولماذا لايتمكن الفلاحون من الحصول علي شيء وهم أهل الزرع ورجال العمل ؟) فأجاب الإمام :(وذالك لأنهم ما باعوا فستقهم إنما أخذه منهم التجار الفرنسيون كرها. وهل كان من العدل أن يقول المشترى لصاحب البضاعة :أشتري بضاعتك بثمن كذا وفي وقت كذا .فيقول البائع :سمعا وطاعة؟! أجاب الإمام بهذا الكلمة التي تشير إلي أنه لايمكن للإتيان بحل مواقف لهذا المشكلة إلا بعد

مشاركة الفلاحين في تقدير الثمن يأخذ التجار الفرنسيون زرع الأمة كرها يزودونها على كل قنطار بدراهم قليلة ولذالك يقول الإمام :(ما باعوا فستقيهم بل أهدوه إلي سادتهم الفرنسين).

التربية الإسلامية قبل كل شي،.

لقد أتت من فرنسا بعثات من المستعمرين الذين بلغوا من التضحية في سبيل رفع لواء الدولة الفرنسية مبلغا عجيبا. فأخذوا يعاملون الأمة السوداء برفق لمن خضع لسياستهم وبعنف لمن لم يجبهم إلى رغبتهم حتى ملكوا البلاد واستولوا على الزعماء العاديين والدينيين. وكان من غرض هؤلاء المستعمرين أن ينشروا الحضارة الغربية في كل أرض فتحوها وفي كل منطقة نزلوا فيها. ولاشك أن الوسيلة الأولى إلي ذالك هي "المدرسة" فاخذوا يشاورون الزعماء في بناء مدارس يعلمون فيها أبناء المسلمون. فقبل البعض وأبى الآخرون لأنهم يحسبون أن المدرسة الفرنسية تغرس في قلوب أبنائهم شيئا من الكفر وتحملهم علي الإعراض عن دين الله عز وجل. وكانت نتيجتها حربا باردة بين بعثات الاستعمار وبين زعماء البلاد. فلنا لم يجد الفرنسيون إلي دعوقم سبيلا طلبوا من المحافظ العام أن يتحدث مع الإمام في ذالك ليعرف ما هو موقفه أمام هذه المهمة .

طلب منه المحافظ العام أن يأتيه في القصر فلما وصل إليه قال له : " ماذا تقول في هذه المدارس التي نقيمها لتعليم أبناء المسلمين ؟" فأجاب :{ إنها تنفع الذين سبق في قلوبهم الإيمان برسالة محمد، الذين تلقوا تربية إسلامية صحيحة عن زعماء الإسلام وإلا فلا أرى إلا المضرة } صدق الإمام وأصاب في قضيته. فإن الثقافة الغربية في قلب خال من الإيمان برسالة محمد {فإنا لله وإنا إليه راجعون }.

القضاء العدل:

طلبت الحكومة الفرنسية من الإمام أن يكون من جملة المرشحين إلي القضاء .طلبت منه أن يكون من القضاة في جزيرة قديس لويس. فأجاب الإمام "إن في القضاء من الإخطار ما لا يرغبني فيه" ولكن الحكومة الفرنسية أصرت علي طلبها وودت ألا يكون بعد هذا الإباء إلا القبول فلما لم يجد الإمام بدا من ذالك، قال لهم : "قبلت ولكن بشروط:

الأول :أن تبنوا لي قصرًا يغنيني عن الإلتفات إلى القصور،

والثاني: أن تضعوا لي من الاقتصاد ما يكفيني في العمل،

والثالث: أن تتركوني أعمل بكتاب الله وسنة رسوله".

يبني الإمام ترشحه إلى القضاء على هذه القواعد الثلاث وهو يعرف بل يتيقن بأن الحكومة لا تقبل ذالك. فهاك قاعدة سياسية يجب على زعماء الإسلام أن يتوثقوا بها لئلا يكون شأنهم كشأن ضعفة الأئمة الذين يفنون حياتهم في التردد بين المكاتب السياسية وبين القصور الحكومية ويطلبون من الدراهم القليلة ما لا يغنيهم شيئًا ويذلون في ذالك أنفسهم بل يذلون الإسلام وهم لا يعلمون أن هؤلاء الأئمة يذهب بهم حب الدرهم وحب الجاه إلى كشف عورات المسلمين أمام الموظفين والسياسيين حيث لا يدرون أن ذالك يجعل في قلب كل مسلم بغضهم وفي قلب موظف أو سياسي عدم احترامهم. مع أن الذين يملكهم سوء السياسية من المستعمرين يتخذون ذالك سلاحا يصيبون به زعماء الإسلام وكان الإمام يقول:

"من عدل الله تعالى أنه إذا سعى مسلم في قتل مسلم فإنه سوف يسعى في قتله، وإذا سعى في اعتقاله أو في نفيه فإنه سوف يسعى في اعتقاله ونفيه".

وجدير بنا أن نجود هنا بقطرات من الدمع إذا رأينا ما عليه اليوم ضعفة الأئمة من الوشاية والنميمة بين المسلمين وبين الحكومة وما عليه الحكومة هي أيضا من التفريق

والتشتيت وإطلاق ما شاءت عليهم من اللوم والتأنيب وجدير بنا نبكي على الأسلاف الذين كانوا يصونون دينهم وأعراضهم عن كل ما يدنسه من هذه المعاملات السيئة، وجدير بنا أن نقول كما قال الشاعر المصري "أحمد الشوقي":

أرى طوفان أهل الغرب يطغى　　وأهل الشرق سادتهم نيام

فإن لم يأتنا نوح بفلك　　على الإسلام والشرق السلام

الشعر – للمتصوفة – تعبير وتصريح:

كان الإمام شاعرًا مفلقا يتبع في شعره نهج المتصوفة، كان يخالف كثيرا من الذين يتخذون الشعر عملا يقتلون به أوقاتهم ويفنون فيه عمرهم.

كان لا يرى الشعر إلا وسيلة للتعبير والتصريح وتقييد الحكم والتنبيهات، وكان يختار في ذالك أسلوبا سهلا حيث أن التكلف يمل القلب ويقتضي إضاعة الوقت والوقت عند الإمام ثمين.

وإليك نموذج من شعره في الوصية والتعبير وغيرها:

ولا تركن حبي لدار فناء　　فتخسر في الدارين دون مراء

ركونك للدنيا غرور وغفلة　　ولا تركنن إلا لدار بقاء

لقد رحل الأحباب عن دار نقلة　　وقد سكنوا بعد العرا بعراء

ألا إن أبناء الزمان تسابقوا　　إلى زينة الدنيا ونيل علاء

إلى أن قال:

لقينا زمانا لا يبالون صفوة　　وما همهم إلا طوال بناء

زمان طموح العين دون قناعة　　وما دينهم إلا احتياز ثراء

وأيضا في الوصية:

مــن لم يطــر عنــه طيــور أربــع فروحـــه إلى العلـــى لا ترفـــع
النســـر والطـــاووس والغـــراب والـــديك راعهـــا عـــداك العـــاب
لأننـــا كالنســـر والطـــاووس في الأكـــل والزينـــة بـــالمقيس
كما لنـــا حـــرص الغـــراب وكـــذا شـــهوة ديـــك فـــالتزاع المأخـــذا

وأيضا في وداع شهر رمضان:

أفي حـــق ذهابـــك يـــا حبـــيبي فمـــا أعـــلاك مـــن ضـــيف نجيـــب
فيـــا ضـــيفا يـــزور بكـــل عـــام وددنـــا أن يقـــيم بـــلا مغيـــب

وأيضا في قوله تعالى لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة:

وكـــل مـــا فعلتـــه نويـــت فيـــه أســـوته صـــلى عليـــه مصـــطفيه
مســـتغفرًا وتائبًـــا ممـــا مضـــى ولم يوافـــق مـــا عليـــه المرتضـــى

وأيضا في الوصية:

يا صـــاحب العهـــد راع العهـــد إن لـــه لســـائلا غـــير موصـــوف بغفـــلات
إيفـــاء عهـــد ونـــذر كـــان قاعـــدة قويـــة عنـــد أربـــاب البلاغـــات

وأيضا في الرثاء:

مـــوت الأحبـــاء آلام وأحـــزان لا ســـيما الـــبر مولانـــا ســـليمان
شمس الزمان أبـــو الخـــيرات ثمرتنـــا لا زال مـــن ربـــه يأتيـــه رضـــوان

الحركة والعمل:

الإنسان كائن مشغول تطالبه الحياة بالحركة والعمل لاستيفاء الحقوق والواجبات الاجتماعية، الإنسانية لا يخلو من الاحتراف لما في ذالك من داعي التعس للجنس البشري كله. ولذالك ألقى الإمام هذه الكلمة إلى جميع الطلبة بعد ما عرف أنهم قضوا شيئا من عصرهم في التعليم عنده:

"فإني أستحسن لكل طالب منكم أن يعمل ويحترف كما تقتضيه الحياة واختار لكل من دعته الحاجة إلى العمل والاحتراف الزراعية والتجارة لأنهما أيسر في نفس كل طالب وأنفع في هذا الوقت لأهل هذه البلاد، إلا أن في كل من الزراعة والتجارة نقطة مهمة،

فالنقطة المهمة للزراعة هي أن لا تكثروا الدين في زمن الخدمة وان تصبروا على الجوع والعرى حتى يصلح زرعكم.

والنقطة المهمة للتجارة هي أن لا تأكلوا شيئا من رأس المال عند الشروع في العمل لأنه إذا ذهب رأس المال ذهبت معه التجارة".

عقلية سامية لا يتحلى بها إلا أهل الحق. قد ألقى الإمام هذه الكلمة إلى الطلبة قبل يومنا هذا بأربعين سنة وكأنه أوحي إليه رب العزة بأن من الشركات ما سوف يؤسس. ثم يستأصل أموال الريفيين ويذهب بحريتهم لما سوف يكلفهم إياه مما لا يستطيعون تحمله مما يعود إلى الربا. وقد ذكر لي السيد الحاج أحمد حسن "اندوي" أنه لما ذهب إلى الإمام يشاوره فيما يريد الدخول فيه من التجارة وطلب وصية جامعة قال له الإمام:

"لا تكلف تجارتك بما لا تطيق" قال الحاج أحمد حسن: ما رأيت كلمة أنفع لي منها في التجارة وقد ذكر في كتابه "كفاية الراغبين" ما ذكره جمال الدين محمد القاضي عبد الرحمن في كتاب " البركة في فضل السعي والحركة": قال النبي ﷺ: "علم الله لآدم ألف حرفة" وقال "إن الله يحب المؤمن المتحرف" وقال الله تعالى لآدم: "قل لأولادك وذريتك إن لم يصبروا فليطلبوا الدنيا بهذه الحرف ولا يطلبوها بالدين فإن الدين لي وحدي خالصا،

ويل لمن طلب الدنيا بالدين ويل له" وقال: "أصلحوا دينكم واعملوا لآخرتكم" وقد كان لكل نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حرفة يعيش منها، فقد كان آدم عليه السلام حراثا ونوح وزكريا نجارين وهود وصالح تاجرين وإبراهيم وموسى وشعيب ومحمد على جميعهم الصلاة والسلام رعاة، ولكل واحد من سائر الأنبياء حرفة وقال: "أتى في الجامع الصغير:ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ولا من ترك آخرته لدنياه، ولكن خيركم من سعي في طلب ما يكفيه من الحلال وقام بما عليه من حق ذي الجلال ولا تكونوا كلا (عيالا)علي الناس ..

قد سد الإمام باب البطالة وفتح باب الحركة والعمل ، ولكن كثيرا من الناس كسالى لا يعلمون سيما وقد أقاموا السؤال والتكلف مقام العمل واتخذوا السبحة والعمامة وسيلة إليهما .. يا سبحان الله.!

تصلون للإمام لا لخالق الإمام !

وبهذا الكلمة تنتفي فلسفة البكاء أمام الهيبة ؛ أناس يبكون عند ما يشرع الإمام في قراءة القران وعند ما يؤم الناس لأداء فريضة الصلاة ، وأناس يهتزون غبطة وسرورا لاستماعهم إلي هذا الصوت الإ لهى اللطيف الذي يختلط فيه الجمال بالهيبة ، الإمام على المنبر يرتل ترتيل رجال السماء الذين لا يحجزك صوهم عن سماع صوت الروح الأمين والمامومون يصفقون بأصابعهم ويهمهمون ولكن الإمام بعد فراغه من الصلاة التفت قليلا إلى هؤلاء الذين يؤمنون إيمان التصفيق والهمهمة فقال:"تصلون للإمام لا لخالق الإمام ،ألا تعلمون أن كل هذه الانزعاجات تنافي الاستحضار الذي هو روح الصلاة ؟" ولم يقتصر الإمام على هذه الكلمة الرادعة ولكن ترك الإمام وأناب منابه بعض الزعماء الذين لا يصفق المصلون من أجلهم ولا يهمهمون. وبعد حين طالبته الجماعات بالرجوع إلى الإمام لكون الإمام الجديد لا يحسن التجويد بل يقرأ الضاد بالدال فأجاب الإمام: "سين بلال

عند الله شين" كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وربما قال: "إن كان الدواء أضر للمريض من الداء فمن الواجب تركه".

إذا لم يمكن القصاص فالعفو أولى:

طال يشعر بعضة ثم يفتش فإذا هو لم يجد إلا هذه ألنملة الصغيرة التي ملأت بعض منافذ الإنسان بالسم؛ فإن النملة استطاعت أن تتحمل ثقل هذه الرجل التي وضعت عليها ولكن الإنسان الذي هو صاحبها لم يتمكن من الصبر على عضة من الحشرات ولو من نملة. فلذالك دمغ المسكينة ببعض أصابعه فإذا هي زاهقة ثم قال.. " نملة قاسية" فالتفت إليه الإمام وسأل: "ماذا؟" فكرر الطالب مبتسما: نملة عضت رجلي" فقال له الإمام:

"إذا لم يمكن القصاص فالعفو أولى ولا أحسب أنك أيها الإنسان الكائن الفخور المتكبر، سترد العضة إلى النملة".

النملة ما عضت؛ ولكنها أحست برجل ثقيلة وضعت عليها فأخذت تحاول أن تتخلص من هذا الجبل الضخم؛ تحاول ذالك بكل ما فيها من قوة حتى ولو بفيئة من سمها، فالإنسان يترفع عن عضة النملة ولكنه لا يترفع عن ردها إليها لعله يريد أن يطبق هذا القانون السماوي الذي يقول: " ولكم في القصاص حياة" نعم ولكن للنملة هي في القصاص موت، عضة وموت، هذا هو القصاص بين الإنسان والنملة ولذالك يقول الإمام بمنطق بسيط: "إذا لم يمكن القصاص فالعفو أولى" والحق أن لا قصاص بين الإنسان والنملة!

لا تطع أهل الشرف بل أطع الله والرسول:

هذا ما قاله الإمام في شأن المدخنين الذين يؤيدون حجتهم على جواز التدخين بما يرونه في البلاد الإسلامية الشرقية من انتشار التدخين بين سكانها "إن أهل الشرق يدخنون" كما قال بعضهم. فأجابه الإمام بقوله: القرآن لا يأمرك بأن تطيع أهل الشرق، إنما يأمرك بأن تطيع الله والرسول".

وكان موقف الإمام أمام مشكلة التدخين موقف مؤدب روحي يرى في التدخين شيئا من الترف ويرى فيه ما يشبه بالإفتار ، وربما قال : " إذا كان تحريم الخمر راجعا للإسكار فمن المحتمل أن يكون تحريم الدخان راجعا للإفتار ولما كان كل مسكر حراما يجب أن يكون كل مفتر حراما ".

وليس من الغريب أن تكون هذه المقتضيات التي تصدر من المؤدبين الروحين حملا ثقيلا على عاتق مجتمعنا البشري المتمدن لا في مشكلة التدخين فحسب ولكن في المشاكل كلها من تقسيم الحياة بين الروح والجسم وبين النفس والعقل وإقامة التوازن بين هذه الحقائق الأربع التي تعود إليها الحياة البشرية كلها . بل وفي رد النفوس الجامحة والأهواء الطامحة التي تحمل رب العزة علي أن يخاطب الإنسان بهذا القول :

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٣٧) الإسراء ›.

وبهذه القول: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (١٩) لقمان.

فإن الإمام يرى المدخنين في قسمين :قسم يدخن وهو لا يبالي بما إذا كان الدخان محللا أو محرما. إنما هو يدخن لحالة نفسانية تميله إلى ذالك فهذا القسم لم يكن الإمام ليباحثه في المشاكل التي تتعلق بالآداب الروحية ، وقسم يستغني بالشك والتردد ، بل يتوسل بهما إلي تحليل التدخين فيقول: { مافي القرآن في ذالك من شيء } ثم يجيبه الإمام بقوله : "والله لا آمرك بأن ترجع إلى معنى هذه الكلمة السماوية "وظل من يحموم لا بارد ولا كريم" ولكني أقول لك إن من واجب المؤمن المخلص أن يمسك أمام الشك والتردد ؛ وذلك علي حد ما قال الشاعر :

وذو احتياط في أمور الدين ... من فر من شك إلى يقين

ولعلك ترى أيها القارىء الكريم أن جميع المؤدبين الروحيين ينتهجون هذا المنهج: الإمساك أمام الشك والتردد ، وإن تعجب فعجب ، يا سبحان الله !

الجنة في الدنيا

بلغت الاشتراكية الحقيقة في فكرة الإمام مبلغا يقتضي منه تكوين الجنة في الـــدنيا، فإن الإمام يفكر في هذه الآيات :

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ(١٣)وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ(١٤)وَنَمَـــارِقُ مَصْـــفُوفَةٌ(١٥)وَزَرَابِـــيُّ مَبْثُوثَةٌ(١٦)﴾ الغاشية

﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ(٦٨)﴾ الرحمن

﴿وَحُورٌ عِينٌ(٢٢)كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ(٢٣)﴾ الواقعة

وإذا لم تكن الجنة مفضلة علي الدنيا إلا بهذه الأشياء فما أخسر طالب الجنة فـــإن فضل الجنة لا ينحصر بهذه النمارق بل يتجاوزها إلي ما يسمى عند أهل الحق باليقين الذي يترع من قلب الإنسان خوف المرض، وخوف الموت، ويترع منه خوف الخديعة والمنكـــر فيصير هذا القلب هادئا مطمئنا. وذلك علي حد ما في القرآن الكريم:

﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ(٢٧)ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً(٢٨)فَـــادْخُلِي فِـــي عِبَادِي(٢٩)وَادْخُلِي جَنَّتِي(٣٠)﴾ الفجر.

وهذه هي الاشتراكية الحقيقة، يأمر الله عز وجل النفس المطمئنة بأن تدخل في عباده الذين يسكنون الجنة فتكون النفس واحدة ولو تعددت الأشخاص ؛ فهناك يحيا الإنســـان بعيدا عن نزقات الحقد والعدوان؛ وهناك يحيا مبرأ مما كان يعرفه في الدنيا من المناوشـــات والمناوآت فتتحقق الأخوة الإنسانية التي لا تتحقق حياة الإنسان من دونها.

فعند ما يفكر الإمام في كل هذا يقول : "كيف لا نحقق هـــذه الأخـــوة في الـــدنيا بتهذيب الأخلاق ؟ وكيف لا نحصل هذا الاطمئنان بالمواظبة علي التقوى ؟.

وأي مفكر من مفكري الاشتراكية أتى بمثل هذا الحل وأي مؤدب بلغ في تأديبه إلى هذا الحد؟ تكوين الجنة في الدنيا بتهذيب الأخلاق والمواظبة على التقوى؟.

الوصية

هذه رسالة وجهها الإمام إلى جميع المسلمين في السنغال يوصيهم بما يوصيهم به فيها:

"فهذه وصية جعلها قوله صلي الله عليه وسلم "الدين النصيحة " قيل :لمن يا رسول الله؟ قال : "لله ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم "!

(من العبد الفقير الحاج ما لك بن عثمان تاب عليهم وعلى الجميع الرحمان .

السلام عليكم ورحمة الله تعالي وبركاته .

وبعد فإني أحذركم يا إخواني من ثلاث : ممن يضمن لكم الجنة بعمل أو بغير. عمل، ومن يأتي مريضكم ويدعي أنه قادر علي شفائه فإن الجنة والشفاء بيد الله فليس بيد العبد إلا الدلالة على الخير والدعاء، وأما غير ذلك فدعوى لا بينة لها.كما أحذركم ممن يقول لكم: يأتيكم الوباء والبلاء إن لم تكتبوا الكلمة الفلانية أو تدعوا بالدعاء الفلاني ؛ وممن يأمركم بذبح أي حيوان وممن يأمركم بتزويج البنات من غير مهر . إلى أن قال: وأؤكد ما أحذركم منه بعد نفسي كلمة توارثتموها من قديم الزمان ، وهي ما تقولونه من أن فلانا يأكل لحم الإنسان. فكل من مات الآن لا تقولون "انقضى أجله " بل تقولون إنه مات بسبب هذا السحر. قال الله تعالي :

﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾(١٥) النور.

إلى أن قال:

"واعلموا أيها الإخوان أن جور الملوك بسبب المعاصي لأنهم سوط الله في الأرض .وفي بعد الكتب :أنا ملك الملوك، قلوب الملك ونواصيهم بيدي فإن العباد أطاعوني جعلتهم لهم رحمة وإن العباد عصوني جعلتهم عليهم عقوبة. فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن توبوا إلي أعطفهم عليكم وهو معنى قوله صلي الله عليه وسلم (كما تكونوا يول

عليكم" ومعناه إن كنتم من أهل الطاعة يول عليكم أهل الرحمة، وإن كنتم من أهل المعصية يول عليكم أهل العقوبة .

وجاء في الخبر أن موسي عليه والسلام قال في مناجاته: يا رب أنت في السماء ونحن في الأرض فما علامة سخطك من رضاك ؟ فأحى الله إليه: إذا استعملت على الناس خيارهم فهو علامة رضائي بهم وإذا استعملت شرارهم فهو علامة سخطي عليكم ..انتهى ثم قال ..وراعوا قول الله تعالي :﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ (٥٨) النساء

ومن الأمانات ما يتعلق بالله وما يتعلق با الناس فلا بد من استيفاء كلا الأمرين – واحذروا اجتناب بعض الأيام لما في ذلك مما يعود إلي الشؤم المتوقع. فإن إمام المدينة رد جميع ماروي في ذلك من الأحاديث .

قال رضي عنه :{ الأيام كلها لله } أفشوا السلام بينكم ولو في المساجد بعد أداء التحية المستحبة فيها ورعوا حقوق عيال الله الذين تحت أيديكم وصلوا أرحامكم لأن الله تعالى لا يصل من لا يصل – والجزاء من جنس العمل؛ وبروا بوالديكم فإن القرآن مشحون بذلك وبجلوا الأمة لأنهم الهداة ولازموا تلاوة كتاب الله العزيز فإنه حبله المتين الذي لا ينفصم وصلوا على النبي صلي الله عليه وسلم أعاننا الله وإياكم على المحافظة عليهما وحشرنا وإياكم في زمرة أهلهما آمين..

ويعود عليكم السلام ورحمة الله تعالي وبركاته}؟

مجهول الأمة

من طبيعة هذه الأمة السوداء أنها لا تعرف قيمة أي ذي قيمة إلا بعد ارتحاله إلى الدار الأبدية أو إذا عرفت قيمته فلا تعترف بها إلا بعد موته ... ولذلك يعسر على كل من يدعو إلى دين أو إلى فلسفة ما أن ينشر دعوته بوجه محمود. ومن طبيعتها إنكار ما شاءت ولو ظهر لها منفعة ذلك. ولذلك كان الإمام يقاسي من المضرات ما لا يقاسيه إلا الأقوياء.

وكان كثيرا ما يتعجب لخشونة طبيعة الأمة ويقول : " لقد كفى سبة وذما أن نكون على حد ما قال الله عز وجل :﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ(١١)﴾ الحج

وكان شديد التأسف على ما عليه المسلمين من التقيد ببعض التقاليد ومن فعل ما شاءوا مما لا يوافق الكتاب ولا السنة : فيقول :

ألا يا رسول الله كلي وجملتي   فإني في هذا الزمان غريب
أعاني حرارات الفؤاد لتنطفي   وقد زاد من ضيق الزمان لهيب
ولو لا تمني الموت من فيك منعه   تمنيته إني إليه أتوب

أخذ الإمام يرجع كلمة الشكوى إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم لعله يجد بعد ذلك من راحة القلب ما يمكنه من تحمل ما يقاسيه مما لا يعمه إلا الله جل جلاله...

وقف الإمام هذا الموقف الكئيب وعرف أن الدواء الذي يشفي هذا الداء هو الصبر ولذلك يقول مفوضا أمره إلى ذي العزة:

يارب هب لي صبرا أستعين به   على احتمال أذى الأخلاق يا صمد
والعفو عنهم إلهي مع مصابرة   وكظم غيظ كما أحببت يا فرد

ويقول:

تركــت إلهــي اعتــراض القضــا لأجلــب منــك الرضــى بالرضــى

فمــا منــك إلا الجيــل الضــيع لأن الجيــل جميــل القضــا

فكيــف اعتــراض الــذليل الحقــير لــرب عزيــز كــريم قضــى

ولم يبق له بعد هذا المقام إلا اللحوق برجال الغيب الذين مضوا إلى رحمة الله تعالي. مكث الإمام في هذه الحالة مدة لا يعرف الناس من شأنه شيئا بل كانوا يرونه كإنســان لم يكن له قلب شعور لقوة صبره وشدة توثقه بالله سبحانه وتعالى لا يضحك ولا يحــزن ولا يتأسف بل كان يقول :{ العارف من عرف بزمانه مقبلا على شأنه }.

ولم يزل هذا شأنه إلى أن دنى ارتقاؤه إلى المقام الأسنى الذي لا يمكنه فيــه مرافقــة للناس ولا معاملتهم إلا معاملة الغائب للحاضر ولذالك يقول :

إلا يــا بــني هــذا الزمــان عليكم ســلام وداع لا ســلام قــدوم

وقد كنت أرجــو قبــل يتسير رفقــه وقــد عــن لي يــأس لنيــل مــروم

وقد غشيني من هذين البيتين ما جعلني أشك في كينونة قلب الإنســان ووجدانيــة فقلت للوالد: ولماذا قال الإمام هذين البيتين مع ما فيهما مما يدل على أنه لم يكن له رقيق في الحياة ؟ فأجاب بأن أهل هذا المقام يتخذون الدنيا معبرا ويتخذها رفقائهم مسكنا فــلا يكون اتصالهم بالناس إلا اتصال الغائب بالحاضر... والله در القائل :

إن لله عبــــادا فطنــــا طلقــوا الــدنيا وخــافوا الفتنــا

نظــروا فيهــا فلمــا علمــوا أنهــا ليســت لحــي وطنــا

جعلوهــا لجــة واتخــذوا صــالح الأعمــال فيهــا السـفنا

وفي هذا المقام كان الإمام لا يهتم بأدنى شيء مما يهتم به الأحياء من أكل

وشرب ونوم إلى أن بلغ به المرض مبلغ العزلة بل ومبلغ الاضطجاع بين أولاده أياما متوالية ينظر إليهم بعين الرحمة وينظرون إليه بعين الشفقة إلى أن انتقلت روحه الطاهرة إلى المقر الأعلى وهم يشهدون ..

إذا كان من عادة المؤمن أن يتلقى كل مصيبة بصبر وجلد فإن المؤمنين لا يستطيعون اليوم إلا إفراغ ما في عيونهم من الدمع ومافي أكبادهم من الدم سيما وقد حان لهم أن يقوموا مع القائمين للصلاة على إمامهم الكريم وإدلائه إلى حفرة القبر. إن رجال الشرطة ينظمون لئلا يقتل الناس بعضهم بعضا وهم لا يعلمون. وإن رجال الدين يصطفون حول المسجد في طهارة كاملة وانتظار دائم دقيقة لم تتبعها أخرى إلا أغرقتهم كلمة التكبير في بحر من السكوت كأن لم يكن في المشهد إنسان، هكذا تلك الكلمة تجمع المسلمين في جو من الصمت والتأدب وفي جو من العطف والوقار كأنما هم إذا قال المسمع :{ الله أكبر} أشخاص لم تكن في صدورهم أرواح ...

أربع تكبيرات يسلم عنها الإمام ويسلم عنها المأمومون بكل سكون وبكل أدب فيتسابقون إلى حمل النعش والتبرك به ثم يسدلون الجسم الكريم إلى مسكنه الأخير ويحثون عليه التراب ثم يقرؤن ما يشاء الله أن يقرؤا من الأدعية والأذكار .

ولما حثونا التراب فوق ضريحه جزعنا ولكن أي ساعة مجزع

اللهم صل علي سيدنا محمد وعلي أله وأصحابه وسلم؟

بعون الله قام بنسخ هذا الكتاب عبيد ربه الراجي عفو ربه الحنان المنان

{ عَلِيُّ صَارْ بن دَاوُودَ "كَرْجُونْ صَارْ" }. الهاتف: 73 66 534 77

بمساعدة: الأستاذ علي انْغِيرْ و الأستاذ مبَاتِ جن و الأستاذ إبراهيم نياس

رحم الله من رأى فيه خلطا وأصلحه لوجه ربنا الكريم. يغفر الله لنا ولكم.

فهرس

تم الفهرس

وبتمامه تم الكتاب والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله
وعلى أصحابه والتابعين والأئمة المجتهدين، آمين